بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 07 يناير 2019

# الوظيفــة الدينيّــة لزيارة المراقــد

صلاح الدين العامري
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

# الوظيفة الدينيّة لزيارة المراقد[1]

1- يمثّل هذا العمل الفصل الأوّل من الباب الثاني من كتاب "صناعة الذاكرة في التراث الشيعي الاثني عشري" - تأليف: صلاح الدين العامري - ط1، منشورات مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2016، ص ص: 259 - 315

**الملخّص:**

خصّص المؤلّف هذا الفصل لتفصيل القول في الوظيفة الدينيّة من زيارة المراقد لدى الجماعة الشيعيّة (تحديداً الاثني عشريّة). وتنزّل هذا البحث في الوظيفة المذكورة ضمن غرض إطاري شامل هو «الذاكرة الخِطابيّة منظومةً تواصليّة». وقد بيّن المؤلّف أنّ الوظيفة الدينيّة تساهم في بناء الذاكرة الجماعيّة الشيعيّة وفي تشكيلها على نحو يحقّق التواصل بين أفراد المجموعة من جهة، ويضمن استمرارها في التاريخ من جهة أخرى. ومن ثمّ بُنِيَ هذا الفصل على قسمين أساسيين: أوّلهما ورد تحت عنوان «الزيارة خلاصاً»، وثانيهما جاء بعنوان «الزيارة دعوة: من الدعوة إلى الإسلام إلى الدعوة إلى المذهب».

ففي ما يخصّ القسم الأوّل، عرّف المؤلّف بمفهومي «الخلاص» و«الزيارة» لغةً واصطلاحاً، ثمّ نظر المؤلّف في إمامة العلويين، باعتبارها أولى مراحل الخلاص في الأدبيّات الشيعيّة الاثني عشريّة، وهو ما أحوج إلى تأويل القرآن في اتجاه يخدم مقالات المذهب والمتخيّل الجمعي للإماميّة الاثني عشريّة (من قبيل المماثلة بين عليّ والصراط). وعدّ المؤلّف الزيارة طقس عبور وثاني مراحل الخلاص في الآن نفسه (التوقّف مثلاً عند أهمّ معاني «الاستبصار» من قبيل تحصيل المعرفة اليقينيّة وتجاوز المعتقد السابق والولادة العجيبة). أمّا مغفرة الذنوب، فقد عُدّت ثالث مراحل الخلاص (تعني المغفرة ههنا الإقرار بولاية العلويين). وقد سُمّيت المرحلة الرابعة والأخيرة بـ «الزائر مخلّصاً» (اعتبار شفاعة الإمام مسلّمة من مسلّمات المذهب).

أمّا القسم الثاني من هذا الفصل، فمداره على اعتبار الزيارة دعوة، إذ الزيارة دعوة إلى تجديد الإسلام، وهو ما ينهض أساساً بشرعنة الزيارة، هذا من ناحية، أمّا من ناحية أخرى، فإنّ في الزيارة تكمن الدعوة إلى المذهب الشيعي (اكتساب الزائر للهويّة الشيعيّة).

******

إنّ المقصود بالوظيفة الدّينيّة هو الدور الذي تؤدّيه الزيارة عقائديّاً في صناعة الذاكرة الجمعيّة الشيعيّة، وفي ضمان تواصل اجتماع الجماعة حول مبادئ المذهب الإمامي، وتوسيع قاعدته. وتتحقّق هذه الوظيفة بمجموعة من المفاهيم الفرعيّة، التي تتفاعل فيما بينها؛ لتسهم في تشكيل مفهوم التشيّع، وتضمن استمرار الجماعة الشيعيّة بالمعنى السوسيولوجي.

## أوّلاً: الزيارة خلاصاً

يمثّل مصطلح [خلاص] مفهوماً مركزيّاً في بناء ظاهرة الزيارة في الفكر الشيعي الاثني عشري، وقاعدة أساسيّة في صناعة روح المعاشرة الاجتماعيّة الموحّدة للجماعة[1]. ويحضر هذا المعنى بقوّة في أغلب المرويّات، إلى حدّ أصبح فيه مقصداً ورهاناً. والخلاص مفهوم أساسي، ليس بالنسبة إلى الشيعة أو المسلمين فحسب، بل هو مفهوم جامع بين الأديان، وقوّة جذب أساسيّة لأكثر الفلسفات الماديّة نقداً للفكر الدّيني. وقد عبّر محمّد باقر الصدر عن امتداد هذا المفهوم وتجذّره، فقال: «إذا كانت فكرة المهدي [المخلّص] أقدم من الإسلام، وأوسع منه، فإنّ معالمها التفصيليّة، التي حدّدها الإسلام، جاءت أكثر إشباعاً لكلّ الطموحات التي انشدّت إلى هذه الفكرة، منذ فجر التاريخ الديني، وأغنى عطاء، وأقوى إثارة لأحاسيس المظلومين والمعذّبين على مرّ التاريخ»[2].

ويتركّز المدلول اللغوي لمادة (خ، ل، ص) على معاني الطهارة، والنقاء، والصفاء، والنجاة، وهي مقولات أساسيّة في الفكر الديني عامّة. وجاء في (**القاموس المحيط**): «الخَلَصُ: شجرة طيّبٌ ريحُها، والخَالِصُ: كلّ شيءٍ أبيضُ، واسم نهرٍ شرقيّ بغداد، والخَلَصَةُ: بيت كان يُدعى الكعبة اليمانيّة لخثعم، كان فيه صنمٌ اسمه الخَلَصَةُ، وأخلص لله: ترك الرياء، وخلّص تخليصاً: أعطى الخَلَاصَ فلاناً نجّاه فتخلّص، وخَالَصَهُ: صَافَاهُ، واسْتَخْلَصَهُ لنفسه: اسْتَخَصَّهُ»[3].

وتمثّل مفاهيم الريح الطيّب، واللّون الأبيض، والماء، وإخلاص النيّة في العمل، والاستخلاص بمعنى الاصطفاء، إحالات على معنى النجاة والفوز بالآخرة في الفكر الدّيني الإسلامي، وتعبيراً عن مقصد أساسي من مقاصد الرسالة المحمّديَّة. ويقوم هذا المقصد على جعل الحياة الدّنيا معبراً لتحقيق الخلاص في الآخرة. جاء في الآية **{وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ}**

1- يعرّف مايكل كاريذرس روح المعاشرة الاجتماعيّة بأنّها «القدرة على أداء السلوك الاجتماعي المعقّد». لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة: الثقافات البشريّة نشأتها وتنوّعها، ص63.

2- الصدر، محمّد باقر، موسوعة الإمام المهدي، دار ومكتبة البصائر للنشر، ط1، 2011م، ص9.

3- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (خلص)، ص ص617-618

**[الأنعَام: 32]**. وذكرت كلمة «الآخرة» في القرآن (122) مرّة في سياقي الترهيب والترغيب، لكنّ المقصد الغالب هو الترغيب فيها، وفي ملذّاتها. وعبّر ابن خلدون عن هذا المعنى، فقال: «اعلم أنّ الدنيا كلّها وأحوالها مطيّة الآخرة»[4].

وحين بحثنا في القرآن عن هذا المصطلح، أحصينا (29) كلمة تتعلق بالجذر (خ، ل، ص) ليس بينها لفظة «خلاص». وتعلّقت (21) كلمة منها بمعنى الإخلاص لله؛ أي الصدق في عبادته، بترك الرياء، والوفاء لأوامره. وجاءت كلمة (خلاص) في سورة (يوسف) بمعنيين، مرّة بمعنى اعتزل[5]، وأخرى بمعنى اختار، واصطفى، واستخصّه؛ أي جعله من الخاصّة[6]. ووردت في سورة (ص) بمعنى الذكر[7]. ووردت لفظة (خالصة) (5) مرات بمعنى خاصّة في سور أخرى[8]. ويخلص بنا هذا الإحصاء إلى اعتبار كلمة (خلاص)، في شكلها، لا مدلولها، مصطلحاً شيعيّاً بالأساس في الفضاء الإسلامي. ولا شكّ في أنّ لهذا المعنى امتدادات أخرى، لعلّ أقربها الفكر المسيحي المنتشر في الجغرافيا الإسلاميّة.

إنّ حديثنا عن العلاقة بين المنظومتين الشيعيّة والمسيحيّة لا يمثّل جزءاً من الخطاب السجالي المذهبي، الذي أثّث تاريخ الفكر الإسلامي، وقام على الاتهام، والاتهام المضاد[9]، وإنّما يندرج ضمن إطار أشمل يؤمن بوجود أرضيّة مشتركة بين الأديان أكّدتها الدراسات الأنثربولوجيّة الدينيّة .[10]ويمكن أن تكون هذه الفضاءات المشتركة قاعدة للحوار بين الأديان والحضارات، وفضاء لتطوير المشترك الإنساني، مع الحفاظ على الخصوصيّات. وتطرّق علي بن مبارك إلى هذه المسألة، فقال: «لقد تبيّن للقائمين بمحاولات الحوار بين الأديان، منذ نشوئها في العصر الحديث، وتدعّمها بعد المجمع الفاتيكاني الثاني[11]، أنّ ما طُرح من قضايا

---

4- ابن خلدون: المقدّمة، طبعة دار الشعب، ص181

انظر أيضاً: الطباطبائي: تفسير الميزان، ج13، ص69

5- {فَلَمّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً} [يُوسُف: 80].

6- {وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} [يُوسُف: 54].

7- {إِنّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدّارِ} [ص: 46].

8- البقرة: 94، الأنعام: 139، الأعراف: 32، الأحزاب: 50.

9- انظر في هذا السياق: عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر، الدار التونسيّة - تونس، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب - الجزائر، 1986م، ص113. وأيضاً محمّد أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، ط1، 1993م، ص55.

10- يقول هاشم صالح: «المقصود بالأنثربولوجيا الدينيّة [عند أركون] دراسة كلّ الأديان في كلّ المجتمعات البشريّة من أجل المقارنة فيما بينها، واستخلاص القواسم المشتركة، وفهم آليّة اشتغال الروح البشريّة فيما وراء كلّ الخصوصيّات الضيّقة المحصورة بشعب واحد، أو دين واحد. فما دام الإنسان سجين دين واحد، فإنّه لن يفهم الظاهرة الدينيّة في أبعادها الأنثربولوجيّة. والمقصود بالظاهرة الأنثربولوجيّة السمة التي تميّز الجنس البشري عن غيره، والتي نجدها بأشكال شتّى في كلّ المجتمعات البشريّة (أي حيث يوجد الإنسان). وفائدة علم الأنثربولوجيا أنه يوسّع نظرتنا إلى أبعد الحدود عن طريق المقارنة بين مختلف الثقافات البشريّة». أركون، محمّد، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ص53.

11- هو آخر المجامع المسكونيّة عُقد في الفاتيكان بين سنتي (1963م) و(1965م)، ومثّل منطلقاً مهمّاً للحوار بين المسيحيّة وبقيّة الأديان، ولاسيّما الديانة الإسلاميّة. ويمكن الاطلاع على وثائق هذا المجمع على العنوان الآتي:

http://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/index_fr.htm

عقديّة لاهوتيّة في العصور الوسطى، في إطار المناظرات، والمطارحات، والجدل، والردود، لا يمكن أن يسهم في التواصل الروحي والمعرفي بين مؤمني الديانات المختلفة»[12]. ولهذا السبب رفعت ملتقيات الحوار، منذ السبعينيّات، شعارات ذات بعد إنساني تتجاوز الخصوصيّات التي أفشلت التقارب، وأجّجت الفتن والحروب[13]. وجاء مصطلح [زيارة] في نصوص المدوّنة بمعنى [الخلاص]، وهو خلاص عبّر عنه ابن قولويه، وتلميذه الشيخ المفيد بمصطلحات متعدّدة. ووردت كلمة (خلاص) بهذا الشكل والمعنى في أحاديث عدّة، رُوي أغلبها عن الإمام الصادق ومنها: «قال الحسين (ع) لرسول الله (ص): ما جزاء من زارك؟ فقال: يا بني من زارني حيّاً أو ميّتاً، أو زار أباك، أو زار أخاك، أو زارك، كان حقّاً عليّ أن أزوره يوم القيامة حتى **أخلّصه** من ذنوبه»[14]. وعبّرت المرويّات عن معنى (الخلاص) بلفظة (الجنّة). ولا يحصّل المسلم هذا الجزاء إلّا إذا تخلّص من ذنوبه، أو رجحت كفّة حسناته. قال جعفر الصادق: «بينما الحسين بن علي (ع) في حجر رسول الله (ص)، إذ رفع رأسه، فقال له: يا أبة ما لمن زارك بعد موتك؟ فقال: يا بني من أتاني زائراً بعد موتي فله **الجنّة**، ومن أتى أباك زائراً بعد موته فله **الجنّة**، ومن أتى أخاك زائراً بعد موته فله **الجنّة**، ومن أتاك زائراً بعد موتك فله **الجنّة**»[15].

وتواتر لفظ (**أنقذ**) في المرويّات بمعنى حقّق الخلاص. ونَقِذَ في اللغة «نَجَا، والنَّقَذُ: التَخْليصُ والتَنْجِيَةُ»[16]. ولا أهمّ عند الزائر من تنحية الذنوب وتحقيق النجاة من هول الآخرة وشدائدها التي كشف القرآن عن بعضها، وتكفّل القصص الدّيني برسم دقائقها. ويماثل هذا المفهوم معنى الخلاص في العهد الجديد، الذي يعني «إنقاذ الخطاة بالإيمان بيسوع المسيح»[17]. ويبدو أنّ الفكر الشيعي قد استوعب هذا المبدأ، وطوّعه في اتجاه صناعة ذاكرة مذهبيّة تتمايز مع الآخر السنّي، دون أن تخرج عن السياق الإسلامي العام الذي يرفض الخلاص بصيغته اللاهوتيّة المسيحيّة. والمُنقذ، والمُخلّص، والمُنجّي في نصوص المدوّنة، هو

---

12- ابن مبارك، علي، الرحمة والإحسان في تقاليد الأديان «الإبراهيميّة»: بحث في تداوليّة الخطاب الديني (الرسالة والتاريخ)، مجلة أديان، مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، ع.1، 2011م، ص42.

13- من بين المؤتمرات التي عقدت في هذه المرحلة:

- مؤتمر النداء لتحقيق التفاهم الإنساني، ببيروت، سنة 1972م، وأشرف على تنظيم هذا المؤتمر مجلس الكنائس العالمي(The World Council of Churches WCC)، ونادى بضرورة تحقيق التراحم بين البشر، وتحويل الدين إلى فضاء محبّة لا واجهة حرب وخصومات:

http://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/index_fr.htm

- الملتقى الإسلامي المسيحي، تونس، سنة 1974م، عمل بدوره على تفعيل القيم الإنسانيّة المشتركة، وتوظيفها في إسعاد الإنسان، وتحقيق التنمية والعدالة ودرء العنف. المصدر نفسه.

- ندوة حوار الأديان التوحيديّة الإبراهيميّة من أجل التسامح والسّلم، تونس، سنة 2004م، وحافظ على الأهداف نفسها.

14- ابن قولويه القمّي، أبو القاسم جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ص40، ح2. ونجد ذلك، أيضاً، في الحديث: 3، 5، 17، من الباب الأول.

15- المرجع نفسه، ص39، ح1. ونجد ذلك، أيضاً، في الحديث: 2، 3، 4، 7، ...، 8 من الباب الأوّل.

16- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (نقذ)، ص339.

17- قاموس الكتاب المقدّس، ص344.

الرسول أو الإمام. ويرتبط هذا الإنقاذ بزيارته حيّاً أو ميّتاً. وجاء هذا المعنى في رواية عن الإمام الصادق قال فيها: «قال رسول الله (ص): من زارني أو زار أحداً من ذرّيتي زُرْته يوم القيامة، **فأنقذته** من أهوالها»[18].

### 1- إمامة العلويين أولى مراحل الخلاص:

يقول الزائر أمام القبر: «مَنْ أرادَ اللهَ بَدَأَ بِكُمْ، مَنْ أرادَ اللهَ بَدَأَ بِكُمْ، مَنْ أرادَ اللهَ بَدَأَ بِكُمْ»[19]. تمثّل مقولة الإمامة مكوّناً أساسيّاً في بنية الزيارة، ووظائفها، وأهدافها. وتتدعّم معالم الربط بين الإيمان والإمامة حين تجعل الأخبار المرويّة عن الأئمّة إخلاص زيارة الحسين، وسيلة لاكتمال الإيمان، وتحقيق الخلاص في الآخرة. ونظراً إلى ارتباط تحصيل الإيمان في الإسلام بالعمل والالتزام بمبادئ الشرائع، وهي مسألة دقيقة وتستحق تضحية قد لا يقدر عليها الجميع، تصبح زيارة الإمام منفذاً لتجاوز هذا القصور، وتحصيل النجاة والخلاص. ولا يحتاج الزائر لبلوغ هذا الهدف سوى بيعة الحسين بالإمامة، والبقاء على العهد بزيارته. ورُوي عن الصادق قوله في هذا السياق: «من أتى قبر الحسين (ع) تشوّقاً إليه كتبه الله من الآمنين يوم القيامة، وأُعْطِيَ كتابه بيمينه، وكان تحت لواء الحسين حتّى يدخل الجنّة، فيُسكنه في درجته، إنّ الله عزيز حكيم»[20]. ومن أوتي كتابه بيمينه في الإسلام صار من أهل الفوز، والفلاح، والجنّة. وقد اقتبس الصادق قوله من قوله تعالى: **{فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ *فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً} [الانشقاق: 7-9]**. ولكنّ الفرق في تحصيل الخلاص بين الحديث والآية جليّ وواضح. إنّ سبيل إيتاء الإنسان كتابه بيمينه في القرآن هو العمل الصالح، والالتزام بقواعد الشريعة[21]، وفي الخبر يؤتى زائر الحسين كتابه بيمينه إن هو تعهّد القبر تشوّقاً لصاحبه؛ لأنّ الإمام رمز للحقّ، وطريق للخلاص.

وجعلت نصوص الزيارة الإيمان بولاية الأئمّة ركناً أساسياً في الإيمان بالله. وقد أحالت المرويّات بوضوح على الآية الرابعة من سورة البقرة، التي أسّست الراهن على السابق[22]. إنّ زائر علي بن أبي طالب فاتحة الخطّ الإمامي، هو زائر آدم ونوح فاتحة العمل النبوي، ومنطلق اكتشاف الذات الإلهيّة الحقّ في الفكر الديني الكتابي. وورد تأكيد ربط الذاكرة الشيعيّة الناشئة بالذاكرة الدينيّة الكتابيّة في قول الصادق:

---

18- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص41، ح4.

19- المرجع نفسه، ص365.

20- المرجع نفسه، ص270، ح1.

21- انظر في ذلك: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج13، ص53 وما بعدها.

22- {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البَقَرَة: 4]. جاء في تفسير الصافي للكاشاني: «وفي المعاني والعياشي عن الصادق عليه السلام: المتّقون شيعتنا. أقول: وإنّما خص المتقين بالاهتداء به؛ لأنّهم المنتفعون به، وذلك لأنّ التقوى شرط في تحصيل المعرفة الحقة. {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البَقَرَة: 3]: بما غاب عن حواسهم من توحيد الله، ونبوّة الأنبياء، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنّة، والنار، وسائر الأمور التي يلزمهم الإيمان بها، ممّا لا يعرف بالمشاهدة، وإنّما يعرف بدلائل نصبها الله عز وجل عليه». ج1، ص38.

«إذا زرت أمير المؤمنين (ع) فاعلم أنّك زائر عظام آدم، وبدن نوح، وجسم علي بن أبي طالب...فإنّك زائر الآباء الأوّلين»[23].

شكّل المتخيّل صورة عجائبيّة يتقاطع فيها الزمن النبوي بالزمن العلوي من خلال المماثلة بين صورة الآباء الأوائل للخطّ النبوي، وصورة الأب الأوّل للخطّ العلوي، ونواة المذهب الشيعي[24]. قال الصادق: «اعلم أنّ أمير المؤمنين (ع) أفضل عند الله من الأئمّة كلّهم، وله ثواب أعمالهم»[25]. وبناء على هذه المكانة، جعلت المرويّات ترك الزيارة سبباً لانتقاص الإيمان، وتدنّي المرتبة في الجنّة. وأكّد المفيد على لسان الصادق أنّ «من لم يأتِ قبر الحسين (ع) من شيعتنا كان منتقص الإيمان، منتقص الدّين، وإذا دخل الجنّة كان دون المؤمنين فيها»[26]. ويشيع هذا التقليد في العراق بين أتباع الديانات المختلفة؛ مثل: الصابئة في ميسان، والمانويّة في المدائن، واليزيديّة بين شمالي العراق وسورية. ويعتقد مشايخ اليزيديّة، مثلاً، أنّ من لم يزر مرقد عدي بن مسافر ولو مرّة في العمر فهو كافر[27].

وتكمن خصوصيّة هذا المعتقد في تقديم الولاء للإمام على العمل بقواعد الإسلام الضامنة للخلاص في الآخرة. وتتعدّد الأخبار المؤسّسة لهذا المعنى، على الرغم من تأكيد بعض أعلام الشيعة أنّ العمل أساس فلاح الإنسان، وسبيل اكتمال وجوده. يقول صدر المتألّهين الشيرازي في هذا المعنى: «اعلم أنّ كلّ نوع من أنواع الموجودات، وإن كان مشاركاً مع غيره في كثير من الأحوال والصفات، لكنّه يمتاز عمّا عداه بخاصّةٍ يكون بها تماميّةُ ذاتها من حيث هي هي [...] والإنسان من جملة أنواع الموجودات، وأقسام الكائنات خصوصيّة ومبدأ فصل به يمتاز عن سائر الحيوانات، والنبات، والجمادات، هي قوّة النطق والآثار المترتّبة عليه هي إدراك المعقولات والتصرّف بمقتضى الفكر والرويّة في الموضوعات للصناعات، وتميّز الخير عن الشرّ، وتعرّف المحمود من المذموم»[28]. وإن وُجدت هذه الأصوات الحاثّة على العمل الصالح، مالت نفوس العامّة

---

23- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص33.

24- يربط الفكر الشيعي بين إمامة العلويين، ومعنى الإمامة، في قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ} [البَقَرَة: 124]انظر حول هذه المسألة: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج1، ص272 (بحث روائي).

وقال الفيض الكاشاني، في تأوّل معنى [حنيفيّة] إبراهيم، في سياق تفسير هذه الآية: «وفي الخصال عن الصادق عليه السلام، قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، وهو أنّه قال: يا رب أسألك بحقّ محمّد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، صلوات الله عليهم إلا تبت عليّ {فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ} [البَقَرَة: 37]. فقيل له: يا بن رسول الله فما يعني بقوله عزّ وجلّ: {فَأَتَمَّهُنَّ} [البَقَرَة: 124]؟ قال: يعني أتمهنّ إلى القائم اثني عشر إماماً تسعة من ولد الحسين عليهم السلام. والعياشي مضمراً، قال: أتمهنّ بمحمّد وعلي والأئمة من ولد علي عليهم السلام. قال وقال إبراهيم: يا ربّ فعجّل بمحمّد وعلي ما وعدتني فيهما، وعجّل بنصرك لهما». تفسير الصافي، ج1، ص83.

25- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص32.

26- المرجع نفسه، ص ص63-64.

27- Yusuf Malek: The British betrayal of the Assyrian, Chicago, 1935, p. 129.

نقلاً عن: الحمد، محمّد عبد الحميد، الديانة اليزيديّة بين الإسلام والمانويّة، ص226.

28- الشيرازي، صدر الدين محمّد، كسر أصنام الجاهليّة، قدّم له وحققه محسن جهانكيري، مؤسّسة ملا صدرا للنشر، طهران، ط1، 1381 هـ/1961م، ص160.

إلى التيسير في تحقيق الخلاص. ولا يجد القصّاص والإخباريّون من سبيل إلى ذلك إلّا باحتراف التخييل والتعجيب في نسج ما يغري العواطف، ويأسر النفوس.

وانخرط المفسّرون الشيعة في مسار تعاظم مكانة الإمام، فتأوّلوا بعض آي القرآن في هذا الاتجاه من أجل صناعة ذاكرة مرجعيّة تعادل الذاكرة السنيّة ومرجعيتها. ومن بين المفاهيم، التي حظيت باهتمامهم، مفهوم (الصراط)، الذي ارتبط ذكره في القرآن بالاستقامة والنجاة. وشملت سورة الفاتحة، الآية الخامسة، صيغة دعائيّة يردّدها المسلم مع كلّ صلاة **{اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفَاتِحَة: 6]**. وروى الطباطبائي، في تفسير هذه الآية، عن الإمام الصادق قوله: «الصراط المستقيم أمير المؤمنين (ع)، ورواه العياشي أيضاً»[29]. وقال المفيد: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: أنا صراط الله المستقيم، وعروته الوثقى التي لا انفصام لها، يعني: أنّ معرفته والتمسّك به طريق إلى الله سبحانه»[30].

إنّ المماثلة بين علي والصراط، والمماهاة بينهما، تؤسّس لعلاقة جدليّة بين سلامة المسلم ونجاته من العذاب، وموالاته الخطّ الاثني عشري، واتباع نهجه. وتستند هذه القاعدة الفقهيّة إلى حديث نبوي يؤكّد أنّ من مات دون معرفة إمامه كانت موتته جاهليّة؛ أي كمن لم يدخل الإسلام ولا عرفه[31]. وروي عن الصادق في حديث آخر قوله: «الصراط هي الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط [الذي] في الدنيا فهو الإمام المفترض طاعته، من عرفه في الدنيا، واقتدى بهداه، مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنّم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه [عن الصراط] في الآخرة، فتردّى في نار جهنّم»[32]. ويبدو الصراط الأوّل، وهو الإمام، أهمّ من الصراط الثاني في المنظومة الخلاصيّة. ولا يمكن الحديث عن المرحلة الثانية من الخلاص في غياب المرحلة الأولى. وأكّد الداعية الإسماعيلي ابن حوشب (ت 347هـ/958م)[33] هذا الشرط، فقال: «السبيل الواضح هو أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وهو الصراط المستقيم، فمن كفر بولايته، ولقي الله بذلك، أحبط الله عمله، وأضلّ سعيه، وجعله هباء منثوراً،

29- الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ص64.

30- الشيخ المفيد، تصحيح اعتقادات الإماميّة، ص108.

31- الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص206

32- الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ص64.

33- هو جعفر بن الحسن (منصور اليمن) بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي. ولد في اليمن نحو (270هـ/883م)، وتوفي سنة (347هـ/958م). نشأ في مجال الدعوة الإسماعيليّة، ولا غرو في ذلك، فهو نجل الداعي والفيلسوف منصور اليمن بن حوشب. بلغ مركزاً رفيعاً في الدولة الفاطميّة في بلاد المغرب ومصر في عهد القائم والمنصور. وبلغ ذروة مجده في عهد المعزّ لدين الله، الذي جعله «باب أبوابه» في مصر، وهي أعلى الدرجات، ولم يبلغها إلا القلة. وتشير الوثائق الإسماعيليّة أنّه خلّف كثيراً من الآثار العلميّة لا تزال توجد في سريّة تامة لدى طائفة البهرة المستعلية بطرفيها السليماني والداودي. ومن مؤلفاته كتاب (الفرائض وحدود الدين)، وكتاب (الشواهد والبيان)، وكتاب (سرائر النطقاء)، وكتاب (أسرار النطقاء وتأويل قصص الأنبياء)، وكتاب (تأويل الزكاة)، وغيرها». الكوفي، جعفر بن الحسن (منصور اليمن) بن فرج بن حوشب بن زادان، كتاب الكشف، تحقيق وتقديم مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1404هـ/1984م، ص11.

وأكبّهم على وجوههم في النار، وإنّه لا يوافي الرجل منهم، ولو أنّ له أعمالاً كالجبال الرّواسي، ولا يلقى الله بولاية أمير المؤمنين، فلا ينفعه عمله»[34].

والصراط في اللغة هو الطريق[35]، وطريق المسلم، عند الإماميّة، هو الإقرار بحق الأئمّة العلويين في قيادة المسلمين، ومناصرتهم في صراعهم الدنيوي مقابل تأمينه في الآخرة. ومن أجل اكتمال المشهد الطقوسي لنصرة العلويين، أوجد المفسّرون مكانة لأنصارهم في تأوّل بعض الآيات، وجعلوهم المقصودين بأصحاب النعمة، والمتقين، والمؤمنين. وذكر الطباطبائي أنّ المقصود بـ: **{الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}** في الآية السادسة من الفاتحة، محمّد وذرّيته، وعلي وشيعته، وحبّ محمّد، وآل بيته[36]، والمؤمنون بالغيب في مطلع سورة البقرة[37]، وشيعة علي الذين يؤمنون بالحجّة الغائب. إنّ مثل هذه التفاسير تضبط الزمن العلوي الإمامي الاثني عشري، الذي ينفتح بالإمام الأوّل علي، وينغلق بالإمام الثاني عشر، ورجعته في آخر الزمن.

ويضمن هذا التأويل شرعنة النص القرآني لمسألة الإمامة وتكريسها جزءاً من المقدّس الثابت في المعتقد الشيعي. ويشرّع هذا التأوّل تصنيف الإمامة ضمن أصول الدّين، التي لا يمكن مراجعتها خلال المرحلة التأسيسية للفكر الإمامي. وأكّد الشيخ المفيد هذا المعنى، فقال: «واتفقت الإماميّة على أنّ من أنكر إمامة أحد الأئمّة، وجحد ما أوجبه الله تعالى من فرض الطاعة، فهو كافر ضالّ مستحقّ للخلود في النار»[38]. يمثّل هذا الاتفاق مقوّماً أساسيّاً في صناعة الذاكرة الجديدة، وقوامه نسف المنظومة السابقة، على الرغم من حرص الفكر الشيعي على ربط مقولاته بالمقولات الدينيّة السابقة.

### 2- الزيارة طقس عبور وثاني مراحل الخلاص:

تفترض هذه المرحلة أن يعيد الزائر صناعة ذاكرته استناداً إلى مكوّنات الذاكرة الجمعيّة الشيعيّة طويلة المدى. ويتعلّق هذا الأمر خاصةً بالوافدين الجدد في كلّ مرحلة من مراحل المذهب. ويعلن المتشيّع بمقتضى هذا التحوّل تبنّيه تاريخيّة الخط العلوي نفسيّاً، ويؤكّد تشيّعه مذهبيّاً أو حزبيّاً[39]. ويتطلّب هذا التموضع الجديد التزاماً بما يقتضيه هذا الاختيار من إصرار على رفض الآخر المخالف مقابل التمسّك بولاية العلويين. وسيشكّل مفهوم البراءة، مع مصطلح الولاء، أحد أهمّ مبادئ التشيّع. ويعبّر الزائر عن هذا المعنى بقوله: «لعن الله من رماك، لعن الله من طعنك، لعن الله من اجتزّ رأسك، لعن الله من حمل رأسك، لعن الله من نكث

34- المرجع نفسه، ص ص37-38.

35- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (صرط)، ص675.

36- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ص66.

37- {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البَقَرَة: 1-3].

38- الشيخ المفيد، أوائل المقالات، تحقيق الشيخ إبراهيم الأنصاري، نشر المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، ط1، 1413هـ/1992م، ص44.

39- انظر: القمني، سيّد محمود، الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلاميّة، مكتبة مدبولي الصّغير، القاهرة، ط4، 1416هـ/ 1996م، ص49.

بقضيبه بين ثنياك، لعن الله من أبكى نساءك، لعن الله من أيتم أولادك، لعن الله من أعان عليك، لعن الله من سار إليك [...] لعن الله من سمع صوتك فلم يجبك [...] لعن الله ابن آكلة الأكباد [...]»[40].

يمثّل هذا الإعلان طقس عبور إلى المذهب الشيعي؛ أي ولادة روحيّة ثانية، وانبعاثاً جديداً بعد التخلّص من خطيئة خذلان علي، ثمّ الحسين، من قبل المسلمين الأوائل. ويعود ظهور مصطلح «طقس عبور» إلى مطلع القرن العشرين مع فان جينيب (**Van Gennep**)، الذي أصدر، سنة (1909م)، كتاباً بعنوان «طقوس العبور»[41]. وقد عُرّب المصطلح الفرنسي [**Les rites de passage**] بعبارات متنوّعة مثل: طقوس التحوّل، شعائر الانتقال، طقوس الانتقال[42]. وقد اخترنا ترجمة المدرسة التونسيّة لعبارة «طقوس العبور» انسجاماً مع الاصطلاح المعتمد في الجامعة التونسيّة. وتتعلّق بالجذر [عبر] في المعاجم اللغويّة معانٍ على صلة ببحثنا منها: فسّر، وتحوّل، وتغيّر، وانتقل. يقول صاحب القاموس: «عَبَرَ الرُّؤْيا عَبْراً: فسّرَهَا، وأخبر بما يؤُول إليْه أمْرُها. وعِبْرُ الوادي: شاطئه. وعبَرَه: قَطَعَهُ من عِبْرِهِ إلى عِبْرِهِ»[43].

إنّ العابر، في هذه الحال، هو الزائر؛ إذ بعد أن يفسّر أصول المذهب أو تُفسّر له، يفهم مضامينها ومآلها، يجد نفسه أمام ضرورة التغيّر والتحوّل، سواء في رؤيته للفضاء الديني الإسلامي، أم في علاقته بالعلويين ومخالفيهم، في إطار ذاكرة جديدة. وتصف الأدبيّات الشيعيّة الوافدين الجدد بـ «المستبصرين». ولئن كان هذا المصطلح يستعمل، اليوم، في الأدبيّات الشيعيّة للمتشيّعين، الذين غيّروا مذهبهم، فإنّ استعماله بمعنى تبيّن حقيقة مذهب آل البيت، يعود إلى القرنين الرابع والخامس/ العاشر والحادي عشر، وورد ذكره في نصوص الزيارة. يقول الزائر عند قبر علي بن أبي طالب: «جئتك عارفاً بحقّك، مستبصراً بشأنك»[44]. واعتمد شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي هذا المصطلح، في عنوان موسوعته التي تمثّل أحد مكونات المدوّنة، وهو (**الاستبصار فيما اختلف من أخبار**)[45].

وتتعلّق بالجذر [ب، ص، ر] مجموعة من المعاني المستبطنة لمعنى إعادة تصنيع الذاكرة، الذي يعبر بمقتضاه المتشيّع الجديد إلى عالمه الجديد. وأوّل هذه المعاني العلم وتحصيل المعرفة اليقينيّة بوساطة القلب. وجاء في (القاموس المحيط): «البَصَرُ من القلب: نَظَرُه وخَاطِرُه. والبصير: العالِم، وعقيدة القلب

40- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص413.

41- A.Van Gennep: Les rites de passage, Paris La Haye, mouton, 1969.

42- انظر ترجمة هذا المصطلح عند: الخشّاب، أحمد، الاجتماع الدّيني مفاهيمه النظريّة وتطبيقاته العمليّة، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ط2، 1964م، ص ص164- 165.

43- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (عبر)، ص435.

44- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص95.

45- موجود في طبعات مستقلّة منها: الاستبصار فيما اختلف من أخبار، تحقيق محمّد جواد الفقيه، فهرسة وتصحيح يوسف البقاعي، دار أضواء، بيروت، 1413هـ/1996م.

والفطنة. والتَّبَصُّرُ: التأمّل والتعرّف. واسْتَبْصَرَ: اسْتَبَانَ، وبَصَّرَهُ: عرَّفَهُ وأوضَحَهُ. وقوله تعالى: **{وَالنَّهارَ مُبْصِراً} [يُونس: 67]**[46]؛ أي: يُبصر فيه. **{وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً} [الإسرَاء: 12]** أي: بيّنة واضحة. **{فَلَمّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً} [النَّمل: 13]**؛ أي: تبصّرُهم وتجعلهم بُصَراء»[47]. ولئن كان العلم أوسع من المعرفة عند حيدر الآملي[48] (ت 787هـ/1385م)، فإنّهما طريق تحصيل معرفة الله على سبيل اليقين[49]. وتمرّ معرفة الله عند الشيعة، ضرورة، بمعرفة الإمام. ويفضي بنا هذا المعطى إلى المعادلة الآتية: إنّ معرفة الله مشروطة بمعرفة الإمام، ومعرفة الإمام هي الطريق إلى معرفة الله. وهكذا تصبح معرفة البصير العالم بتاريخ المذهب الشيعي وعقائده استبصاراً بالطريق القويم الذي اختصم المسلمون من أجل تحديده فكريّاً، ونفسيّاً، وعسكريّاً.

وأمّا ثاني المعاني، فهو تجاوز المعتقد السابق، والتطهّر من زلّاته، وجاء المعنى في القاموس صريحاً: «البَصْرُ: القَطْعُ». وهذا يعني أنّ الشيعي الجديد ينفصل عن موروث مدنّس ليصل نفسه بمرجعيّة جديدة مقدّسة هي بمثابة الهداية الثانية، بعد هداية الإسلام الأولى. إنّها عمليّة تصنيع جديدة ينفتح بموجبها الفضاء الروحي الجديد أمام الفرد، بعد أن استبصر الحقيقة واستبانها. وبعد أن تحقّق من سلامة نهج الأئمّة، ومن اتبعهم في الزمن البدئي لحلول مرحلة الولاية وريثاً لمرحلة النبوّة. وعند بلوغ هذه المرحلة، يرث المستبصر النّسب العلوي، والنّسب النبوي. وينقسم هذا الانتساب إلى نوعين: انتساب معنوي، ويحصّله من لم يكن على صلة بشجرة نسب آل البيت، وانتساب صوريّ، ويتميّز به من كان على صلة بهذه الشجرة.

نستند، في تصنيف انتماء المستبصر، إلى تقسيم حيدر الآملي للمعرفة الموروثة. يقول صاحب الأسرار في هذا الصدد: «استحقاق الإرث لا يخلو من وجهين؛ فهو إمّا أن يكون بحسب النسب الصوري، إن كان الميراث صوريّاً، وإمّا أن يكون بحسب النسب المعنوي، إن كان الميراث معنويّاً»[50]. ومن مظاهر هذا التمييز لون العمامة التي يرتديها منتسبو المذهب؛ إذ يتعمّم ذوو النسب الصوري بالعمامة السوداء، ويسمّون السادة والأشراف، ويصرّ بعض هؤلاء على نسبهم العربي أسوةً بالأصل النبوي، وإن كانوا عمليّاً من غير العرب. ويرتدي أصحاب النسب المعنوي العمامة البيضاء، وأغلبهم من غير العرب، أو غير المنتمين إلى

---

46- [النمل: 86]، و[يونس: 67]، و[غافر: 61].

47- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (بصر)، ص ص351-352.

48- هو حيدر بن علي بن حيدر الآملي. واشتهر بأوصاف كثيرة منها: ركن الدّين، وركن الحق والملة والدّين، والعلوي، والحسيني، نسبة إلى آل البيت. ولد في مدينة آمل التابعة لطبرستان، أو مازندران، سنة (719هـ/1319م) لأسرة شيعيّة. درس مبادئ العلوم وأصول العقائد في بلدته، ثم تحوّل إلى خراسان، واستراباد، وأصفهان، التي كانت آنذاك مركزاً فكريّاً وسياسيّاً. انقطع عن الدراسة، وامتهن السياسة، من خلال معاشرة العديد من الملوك، ونال حظوة كبيرة بين القصور. ولكنّه اعتزل السياسة فجأة، واختار العودة إلى العلم. هاجر إلى مكة، وحاول الاستقرار فيها، ولم يتيسّر له، لكنّه كتب العديد من الكتب في هذه الرحلة، ومنها (منازل السائرين). عاد إلى أصفهان سنة (780هـ/1378م). حمية، خنجر علي، العرفان الشيعي: دراسة في الحياة الرّوحيّة والفكرية لحيدر الآملي، دار الهادي، بيروت، ط2، 1429هـ/2008م، ص31.

49- الآملي، حيدر، جامع الأسرار، ص473.

50- المرجع نفسه، ص500.

شجرة البيت الهاشمي. ويشعر أصحاب هذه الطبقة بأنّهم من الصفّ الثاني لرجال المذهب، على الرغم من تمتّع بعضهم بدرجة مرجع تقليد مثل علي السيستاني، المرجع الأعلى للشيعة اليوم. وهنا، تطفو مسألة النسب عند العرب التي حضرت بقوّة في أكثر تمفصلات التاريخ الإسلامي أهميّة وخطورة منذ نشأته.

وتأوّل صاحب الأسرار بعض آيات القرآن، وعدّها مؤسّسة لهذه الرابطة الرّوحيّة والمعنويّة المشكّلة للجماعة الشيعيّة. وتهيّأ له أنّ الله تعالى يقول للروح الطاهرة الراجعة إليه بوساطة الإمام: **{فَادْخُلِي فِي عِبادِي} [الفَجر: 29]**. والدخول في هذه الجماعة الدينيّة عبارة عن صيرورة الشخص منهم حقيقة، واتحاده بهم معنى لا صورة[51]. وينطبق هذا التوصيف على سلمان الفارسي، الذي قال فيه الرسول: «سلمان منّا أهل البيت»[52]. ونظراً إلى أنّ هذا الفارسي لا يتصل بالبيت النبوي صوريّاً، فإنّ المقصود بإلحاقه بالبيت النبوي كان بوساطة النسب المعنوي والروحيّة المشتركة. وهذا ما حاول صاحب (**الأسرار**) إثباته من خلال قصّة نوح، التي نفى فيها القرآن الأهليّة عن ولد نوح: **{يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هُود: 46]**. والمقصود بهذا النفي هو الأهليّة الروحيّة، ولم يقصد سلب النسب الصوري الناتج عن العلاقة الأبويّة[53].

وأمّا ثالث المعاني، فهو الولادة الجديدة الناتجة عن المرحلتين الأولى والثانية. ويشعر بها المستبصر بعد أن عرف طريق الإمام، واتضح له المسير والمصير. وفي القاموس: «استبصر الجَرْوُ: فَتَح عينيه، والمَبْصَرَة: دمُ البِكْرِ»[54]. يشترك المعنيان في صلتهما بلحظة الولادة. فدم البكر يعني تحوّل الفتاة من حالة اللّا إنجاب إلى حالة الولادة، والجرو الذي يفتح عينيه هو رمز الولادة الحديثة. ويعبّر كلا الحدثين عن مرحلة جديدة بمقاييس مغايرة للسابق، وفاتحة لمرحلة الخلاص في الإمام، بعد تطهّر المستبصر بوساطة طقوس العبور أمام القبر.

تفضي هذه المراحل الثلاث إلى مرحلة رابعة تختزل قسماً مهمّاً من الجانب العملي في مفهوم التشيّع، وهو مفهوم التضحيّة من أجل الإمام، ومبادئه، والثأر له من أعدائه، ولو بالشهادة بين يديه، أو من أجله. وفي القاموس: «المَبْصَرَة: الشّهِيد»[55]. والشهادة ثقافة في أدبيّات المذهب الشيعي؛ لأنّ كلّ شيعي يعتقد أنّ ما أتاه الحسين في العاشر من محرّم هو ما يجب أن يكون. ويعلن استعداده للوقوف حيث وقف الإمام، وينال ما ناله؛ لأنّه تابع له كما يقرّ في بعض الأدعية. ويعبّر الزائر عن استعداده للشهادة من أجل أئمّته، والتضحية

51- الآملي، حيدر، جامع الأسرار، ص501.

52- انظر، مثلاً: تفسير الصافي، ج1، ص16، والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 133/6.

53- الآملي، حيدر، جامع الأسرار، ص500.

54- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (بصر)، ص351.

55- المرجع نفسه، ص351.

بالنفس، ويحدّد السبب، فيقول: «لعن الله من استخفّ بحقّكم وقتلكم، لعن الله من بقي منهم، ومن مضى، نفسي فداؤكم ولمضجعكم»[56].

بناء على ما سبق، تكون بيعة الإمام وموالاته هي المعْبَرُ[57]، الذي يُعبر به من ذاكرة إلى أخرى، ومن حالة الانحراف العقدي إلى شاطئ السلامة في الآخرة. والأئمّة، في الأدبيّات الشيعيّة، هم سفينة نجاة المسلم من غضب الله. ويعبّر الزائر عن هذا المعنى، فيقول: «بأبي أنت وأمّي أتيتك زائراً وافداً عائذاً ممّا جنيت على نفسي، واحتطبت على ظهري، وأسأل وليّك ووليّ أن يجعل حظّي من زيارتك عتق رقبتي من النار»[58]. وحين يقدم المسلم الشيعي على هذا التحوّل، يكون قد شرع في عمليّة تطهّر من عقدة الإحساس بالذنب، التي ورثها الروح الجمعيّة نتيجة خذلان الحسين في واقعة الطف. ويصاحب هذا التحوّل اعتبار الزائر. واعْتَبَرَ، في اللغة: اختنق بالدّمعةَ، قبل أن تفيض، أو تردّد البكاء في صدره، أو حزن بلا بكاء[59]. ورُوي عن الصادق قول الحسين: «أنا قتيل العَبرة، لا يذكرني مؤمن إلّا استعبر»[60].

إنّ الحزن من أجل دين الله هو منزلة رفيعة ومقام محمود عند الله. وإذا كان الحزن من أجل الأئمّة علامة صدق تشيّع الفرد وإخلاصه، وعلى اعتبار أنّه لا يمكن الفصل بين النوعين في تمثّل الفكر الشيعي لخروج الحسين على يزيد بن معاوية، يكون الإنسان الشيعي قد جمع بين المنزلتين الرفيعتين. يقول شارح (**منازل السائرين**) لأبي إسماعيل الأنصاري، في قوله تعالى: **{تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا} [التّوبَة: 92]**، أثنى الله تعالى على هؤلاء لمكان حزنهم، فدلّ على أنّ الحزن مقام حسن[61]. وحقيقة الحزن عند الأنصاري هي تألّم الباطن بالنسبة إلى ما مضى. وما مضى في هذا السياق هو التنكّر لرسالة الإمام الحسين وخذلانه في شهر محرّم، حين خرج للإصلاح في أمّة جدّه، وواجه جبروت الآلة العسكريّة الأمويّة منفرداً. ويقسّم الأنصاري الحزن إلى ثلاث درجات: أوّلها حزن العامّة، وثانيها حزن أهل الإرادة، أمّا ثالثها، فهو التحزّن للعارضات، أو هو حزن الخاصّة.

يخصّ حزن الدرجة الأولى بقيّة المسلمين من غير الشيعة أوّلاً، وأبناء المذهب غير الملتزمين ثانياً. ومداره التفريط في خدمة آل البيت، ونصرة الأئمّة أمواتاً أو أحياء، والتورّط في جفائهم بعدم البيعة، أو الزيارة. وينجرّ عن هذين العاملين الإحساس بضياع الأيّام من عمر الإنسان، وهو بعيد عن حضرة الإمام،

56- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص416.
57- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (عبر)، ص435.
58- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص416.
59- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (عبر)، ص435.
60- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص251.
61- الأنصاري، عبد الله، منازل السّائرين، ص101.

ومعرفته الواجبة. ويختصّ بالدرجة الثانية عامّة أتباع المذهب من الملتزمين عقائديّاً بمبادئه، وهم أهل الإرادة ممّن أعلن نصرته للعلويين. ويحزن من هذه الفئة كلّ من تعلّق قلبه بمتاع الدنيا، وانشغل عن زيارة الإمام، وعن الحزن عليه، كلّما حلّت مناسبة من المناسبات المستعادة. وهؤلاء هم الذين خصّص لهم ابن قولويه باباً بعنوان: (فيمن ترك زيارة الحسين بن علي (ع))[62]. وباعتبار أنّ من مات منهم على هذه الحال يكون منتقص الإيمان، والدّين، والمكانة في الجنّة، إن تسنّى له تحصيلها، يغتمّ كلّ من فطن بهذا الأمر، ويحزن على التلهّي عن الواجب، وإشغال النفس بالملاهي الزائلة.

أمّا أصحاب الدرجة الثالثة من الحزن، فهم كبار العلماء العارفين بحقّ التشيّع، وهم القائمون على مبادئه عملاً ودعوة. وبحكم التزامهم بما يعتقدون أنّه الواجب تجاه الإمام، يكون حزنهم على غيرهم ممّن لم يفهم هذه الرسالة، أو يتقيّد بها. يقول عبد الرزاق الكاشاني: «فإنّهم قد يحزنون على غيرهم كحزن رسول الله (ص) على أمّته في قوله تعالى: **{فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذا الْحَدِيثِ أَسَفاً} [الكهف: 6]** [...]، وكحزن يعقوب على يوسف عليهما السلام، في قوله: **{إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ} [يُوسُف: 13]**. والتحزّن: تكلّف الحزن»[63]. وتكلّف على وزن تَفَعَّلَ، ومن معانيه المطاوعة، وبذل الجهد في القيام بالفعل، أو اتصاف الفاعل بصفة جديدة، أو الانتساب إلى مذهب أو دين. ويكون التكلّف، في هذا السياق، مبادرة شخصيّة من صاحب الحزن. إنّه حزن التكليف والمسؤوليّة الذي ورثه الإمام عن النبي، وورثه الوكيل عن الإمام الغائب، ثمّ يرثه الفقهاء عن الوكلاء الأربعة.

وسرعان ما ينفجر هذا الانحباس، فيستعبر الزائر؛ أي تجري عبرته، فيبكي، ويستبكي، ويُبكي. وقد جعلت أدبيّات المذهب البكاء على الحسين علامة من علامات الإيمان، والتشيّع، والنجاة في الآخرة. روى ابن قولويه عن الإمام السجّاد قوله: «أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي (ع) دمعة حتى تسيل على خدّه بوّأه الله بها في الجنّة غُرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خدّه فينا لأذىً مسّنا من عدوّنا في الدنيا، بوّأه الله بها في الجنّة مبوّأ صدق، وأيّما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتى تسيل على خدّه مضاضة ما أوذي فينا، صرف الله عن وجهه الأذى، وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار»[64].

على هذا الأساس، أصبح البكاء، عند الشيعة، شعيرة من شعائر المذهب المطهّرة للنفوس من الباطل والدّنس. وقد كان الأئمّة كثيري البكاء، أثناء خلواتهم وتعبّدهم، تعبيراً عن رفض الدنيوي المدنّس، ورغبة في الأخروي المقدّس. ويذكر المطهّر الحلّي أنّ هذا التقليد بدأ مع الإمام الأوّل؛ إذ مع كلّ سكون ليل يبكي علي بن أبي طالب بكاء الحزين، ويقول: «يا دنيا عمرك قصير، وخطرك يسير، وعيشك حقير، آه من قلّة

62- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص355.

63- الأنصاري، منازل السّائرين، ص103.

64- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص201.

الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق»[65]. وذكر محمّد الجويلي، في هذا السياق، أنّ الإمام الشيعي يسعى إلى التطهير والتطهّر، لا عن طريق العبادات فقط، وإنّما «بالدموع التي تنهمر بغزارة لتغسل أدران الذات»[66].

وبناء على ذلك، يكون بكاء الإنسان الشيعي، أمام القبر، واجباً من جهتين: أولاهما الالتزام بمحاكاة الإمام في كلّ ما يصدر عنه، والوفاء للعهد الذي قطعه باتباع الإمام حين يقول: «أُشهِد الله وأُشهدكم أنّي لكم تَبَـعٌ بذات نفسي، وشرايع ديني، وخواتيم عملي»[67]. فالإنسان الدّيني لا يرى نفسه إنساناً حقّاً إلّا بمقدار ما يحاكي الآلهة، أو أبطال الحضارة، أو الأسلاف الميطيقيين[68]. وهذا هو حال المسلم الشيعي الذي يخاطب إمامه: «يا ليتني كنت معك»[69]. وأمّا ثانيتهما، فتعكس الرغبة في التطهّر من الذنب الفردي والجمعي في الآن ذاته، ومن الذاكرة القديمة المنحرفة، أملاً في الخلاص الموعود. يقول إبراهيم الحيدري: «يلعب البكاء على الحسين دوراً مهماً وكبيراً في الشفاعة والخلاص»[70]. وهذا من وجهة نظر النصوص المرويّة عن الأئمة، وما لحق بها من تأويل وتوظيف.

ويعقب الإحساس بالحزن والبكاء بالدمع استعداد للعمل من أجل نصرة العلويين ضدّ أعدائهم، كما ورد سابقاً على لسان علي بن الحسين. ويسعى الشيعي إلى نصرة أئمّته عمليّاً مثلما فعل الشيعة الأوائل. قال اليعقوبي (ت 284هـ/897م): «وقام سلمان بن صرد الخزاعي، والمسيّب بن نجَبة الفزاري، وخرجا في جماعة معهما من الشيعة بموضع بالعراق يقال له «عين الوردة»، يطلبون بدم الحسين بن علي (ع)، ويعملون بما أمر الله بني إسرائيل؛ إذ قال: **{فَتُوبُوا إِلَى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ} [البَقَرَة: 54]**»[71]. ولا شكّ في أنّ المقصود بقتل النفس الذي تحدّث عنه سلمان بن صرد في الآية غير المعنى الذي جاء في تفسير البيان للطباطبائي. وجاء في الخبر أنّ موسى أمر بني إسرائيل أن يصعدوا إلى بيت المقدس، ويقتّلوا بعضهم بعضاً بالسكاكين وبالسيوف، وقد فعلوا ذلك إلى أن أذن الله لهم بوقف القتل، وتاب على من بقي، وغفر لمن مات[72]. ونعتقد أنّ ما كان يقصده ابن صُرد هو فداء

---

65- الحلي، المطهّر، منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، حققه محمد رشاد سالم، ضمن كتاب منهاج السنة النبويّة في نقض كلام الشيعة والقدريّة، مكتبة خياط، بيروت، 1962-1963م، ج1، ص176.

66- الجويلي، محمّد، الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي، ص113.

67- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص252.

68- إلياد، مرسيا، المقدّس والدنيوي: رمزيّة الطقس والأسطورة، ص95.

69- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص412.

70- الحيدري، إبراهيم، تراجيديا كربلاء، ص316.

71- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص4 (الآية 54 من سورة البقرة).

72- الطباطبائي، محمّد حسين، تفسير البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن، تحقيق أصغر إرادتي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1427هـ/2002م، ج1، ص140 وما بعدها.

الحسين بالأنفس من خلال قتال أعدائه الأمويين، في اللحظة الحاسمة التي احتاج فيها هذا القائد إلى النفير، وشحذ العزائم، والموت من أجله.

وأمّا في زمن الانحصار والتضييق، فيُحيّن الشيعي عداءه لأعداء أئمّته، وعداء من اتبع نهجهم. ويعدّ نفسه للثأر منهم، إذا ما سمحت الفرصة بذلك. ويدرج الزائر هذا الاستعداد ضمن طقوس التطهّر من الإساءة إلى الأئمّة، سواء بالمشاركة، أم بالتواطؤ، أم بالصمت. ويعبّر أمام قبر الإمام صراحة عن رغبته في التطهّر و«المعموديّة» بتأكيد البيعة، وتجديد الولاء، والاستعداد للتضحية من أجله، فيقول: «اللّهمّ طهّرني، وطهّر قلبي، واشرح لي صدري...اللّهمّ طهّر به جوارحي، وعظامي، ولحمي، ودمي، وشعري، وبشري، ومخّي، وعصبي، وما أقلّت الأرض منّي»[73]. ويمثّل هذا الخطاب رسالة سلبيّة في اتجاه الآخر السنّي، الذي يجد نفسه في صورة المُهدّد، فيتحفّز بدوره، وتستمرّ الأزمة في زمن مفتوح.

### 3- مغفرة الذنوب ثالث مراحل الخلاص:

تمثّل هذه المرحلة نتيجة منطقيّة للمرحلتين السابقتين، وهما الإقرار بولاية العلويين قولاً، وتصديقها عملاً بالزيارة. ومع بلوغ هذه الدرجة من الترقّي في سلّم المذهب يحصّل الزائر الخلاص النفسي في الدنيا بيقينه في مغفرة ذنوبه كلّها. وغفِر في اللغة: «سَتَرَ، وغَفَرَ الأمر بغُفْرِته وغَفِيرَتِهِ: أصلحه»[74]. يكتسب المَزُور، في هذه الحال، قدرة على ستر آثام زائره، وضمان محوها، وإزالتها، وتخليصه من هول الآخرة. قال الصادق: «من أتى قبر الحسين (ع)، عارفاً بحقّه، غُفِر له من ذنبه ما تقدّم وما تأخّر»[75]. وتضمن الزيارة، بحسب هذا الخبر، التطهّر التام من الآثام، وتعلن ولادة جديدة لزائر الحسين بذاكرة جديدة، ومرجعيّة غير التي كانت، ومكانة أرفع، بعد أن تُمحّص «عنه ذنوبه كما يُمحّص الثوب في الماء، فلا يبقى عليه دنسٌ»[76]. ولا يمنح الفكر الديني الإسلامي هذه الدرجة من التطهّر إلّا للشهيد، أو للقائم بفرض الحجّ حسب قواعده. لكنّ أدبيّات المدوّنة تؤسّس لهذا التميّز في الفضاء الشيعي؛ بل تتجاوزه بشكل صريح ومُغْرٍ للزائر. روى المفيد عن داود بن فرقد قوله: «قلت لأبي عبد الله (ع): ما لمن زار الحسين (ع) في كلّ شهر؟ قال: له من الثواب [مثل] ثواب مئة ألف شهيد من شهداء بدر»[77].

وتخيّرت أخبار المدوّنة للزائر أفضل درجات الثواب لتدفع به إلى المواظبة على تعهّد قبر الحسين، وتشدّه إليه. وكما هو معلوم يحتلّ شهداء بدر هرم سلّم الجزاء. كيف لا، وهم السابقون إلى التضحية بدمائهم

73- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص398.

74- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (غفر)، ص451.

75- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص266، ح14، يمكن العودة إلى الباب 45: ثواب من زار الحسين (ع) عارفاً بحقه.

76- المرجع نفسه، ص273، ح1.

77- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص62.

في سبيل تركيز الدعوة الإسلاميّة؟ وقد مدح القرآن السبّاقين إلى نصرة الدّين، ونشره في سورة التوبة **{وَالسّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التّوبَة: 100]**. وعلى الرغم من التعميم عند ذكر المهاجرين والأنصار، فإنّ التفاسير الشيعيّة، التي يستند فيها اللّاحق للسابق، أبت إلّا التخصيص، وحصرت صفتيْ المهاجرين والأنصار في قلّة من الذين شايعوا عليّاً، ورأوا أحقّيّته بالخلافة. قال الفيض الكاشاني: «[قال] القمي: هم النقباء، وأبو ذر، والمقداد، وسَلمان، وعمّار، ومن آمن، وصدّق، وثبَت على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام. وفي **(نهج البلاغة)** لا يقع اسم الهجرة على أحد إلّا بمعرفة الحجّة في الأرض، فمن عرفها وأقرّ بها، فهو مهاجر، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة[78]. وجاء في **(تفسير البيان)** أنّها نزلت في علي «وهو أسبق الناس كلّهم بالإيمان، وصلّى إلى القبلتين، وبايع البيعتين: بيعة بدر، وبيعة الرضوان، وهاجر الهجرتين مع جعفر من مكّة إلى الحبشة، ومن الحبشة إلى المدينة»[79]. ويتضح لنا بيسر مبالغة أصحاب التفاسير التي جاءت متأخرة زمنيّاً عن حادثة الهجرة والنصرة، وإسقاط توجّهاتهم، وفقاً لمواقعهم المذهبيّة.

إنّ المماثلة بين زيارة الحسين وبين عمل هذه الجماعة هي عمليّة تحيين (**Réactualisation**) لزمن الدعوة الأوّل، الذي يحظى بقداسة لا متناهية لدى المسلمين. فالعقل الإيماني الشيعي يحرص على تكرار فعل الخلق الأوّل كما وضّحه إلياد[80]. ولا يكتفي الحديث السابق بالمماثلة بين الدعوة المحمّديّة، والدعوة الحسينيّة، وإنّما جعل أفضليّة للمنخرطين في الدعوة المجدّدة على أولئك الذين دافعوا عن الدعوة المؤسّسة؛ لأنّ استعادة الشيء الثمين بعد ضياعه ليس مثل اكتسابه لأوّل مرّة. فالعرب قبل الإسلام لم يكن بوسعهم تمثّل أهميّة هذه الدعوة، ودورها في حياتهم، مثلما هو الحال بعد انتشارها وتوسّعها. وبناء على هذا المعطى، وغيره من الخلفيّات الأخرى، كالاطلاع على الموروث الديني الكتابي، أو الاحتفاظ ببعض الموروثات الفكريّة والروحيّة لمن أسلموا، اندفع الإخباريّون بحماستهم وعاطفتهم إلى تفضيل الزمن العلوي على الزمن النبوي، وإن كان تابعاً له، ومكمّلاً حسب ما أعلنه الحسين عند خروجه إلى العراق.

ويسهّل استدعاء الزمن النبوي إثارة عواطف الناس، واستمالتهم إلى التشيّع. ومع كلّ استمالة تتوسّع قاعدة الجماعة الشيعيّة، وتترسّخ مشروعيّة مبادئها وأهدافها. ويصبح التشيّع، في هذا السياق، دعوة جديدة تقوم على أنقاض واقع تردّى، ورسالة أُفرغت من معناها. وقد عبّر الحسين عن هذا المعنى في أكثر من رواية منسوبة إليه، ومنها قولته المتواترة: «أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي،

78- الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج2، ص162.

79- الطباطبائي، تفسير البيان، ج5، ص169.

80- إلياد، مرسيا، أسطورة العود الأبدي، ص48.

وأبي علي بن أبي طالب»[81]. إنّ زيارة الحسين، في هذا الإطار، تضمن ثواب ما خرج هو من أجله، وتمحو العقاب الذي علق بمن خذله، وتخلّف عنه، ولم يناصره على أرض كربلاء. وحين يجمع الزائر هذا إلى ذاك يكون الفوز، ويكون الخلاص.

### 4- الزائر مخلّصاً، أو رابع مراحل الخلاص:

عبّرت نصوص المدوّنة عن معنى «الخلاص» بمصطلح «الشفاعة». ويمثّل هذا المفهوم المركزي في الفكر الدّيني الإسلامي فضاءً مشتركاً بين جميع المذاهب، وإن بتمثّلات متمايزة. وقد تمّ تأوّل بعض آيات القرآن في اتجاه تمكين بعض البشر من القدرة على الشفاعة بإجازة إلهيّة. وتركّز التأويل على قوله تعالى: **{لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً} [مَريَم: 87]**. وتتفق غالبيّة المسلمين حول تمتّع الرسول (ص) بهذه المنحة الإلهيّة، وتنوّعت الأخبار في ذلك[82]. ويبدو أنّ الفكر الشيعي قد وجد في هذا الإجماع أرضيّة لإلحاق الأئمّة العلويين بما منّ الله به على رسوله.

وصارت شفاعة الإمام مسلّمة من مسلّمات المذهب. يقول الشيخ المفيد: «واتفقت الإماميّة على أنّ رسول الله (ص) يشفع، يوم القيامة، لمجموعة من مرتكبي الكبائر من أمّته، وأنّ أمير المؤمنين (ع) يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأنّ أئمّة آل محمّد -عليهم السلام- يشفعون كذلك، وينجّي الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين»[83]. ويربط الفيض الكاشاني، في تفسير آية الشفاعة السابقة، بين الشفاعة والإقرار بإمامة العلويين، فيقول: «في الكافي عن الصادق عليه السلام، قال: إلّا من دان الله بولاية أمير المؤمنين عليه السلام، والأئمة عليهم السلام من بعده، فهو العهد عند الله. والقميّ عنه عليه السلام لا يشفع لهم ولا يَشْفَعُونَ **{إِلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً} [مَريَم: 87]** من أذن له بولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام من بعده، فهو العهد عند الله»[84].

---

81- الخوارزمي، مقتل الحسين، ج1، ص188.

82- روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قوله لجماعة من أهل البصرة يسألونه عن حديث الشفاعة، قال: حدّثنا محمّد صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم، فيقولون له: اشفع لذريتك. فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام، فإنّه خليل الله. فيأتون إبراهيم. فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام، فإنّه كليم الله. فيؤتى موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام، فإنّه روح الله وكلمته. فيؤتى عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمّد صلى الله عليه وسلم. فأوتى، فأقول: أنا لها. فأنطلق، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيها الله. ثمّ أخرّ له ساجداً، فيقال لي: يا محمّد! ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسلْ تعطه، واشفع تشفع. فأقول: ربّ! أمتي. أمتي. فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبّة من ذرة، أو شعيرة من إيمان، فأخرجه منها. فأنطلق فأفعل. ثمّ أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثمّ أخرّ له ساجداً. فيقال لي: يا محمّد! ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسلْ تعطه، واشفع تشفع. فأقول: ربّ! أمتي. أمتي فيقال لي: فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها. فأنطلق فأفعل. ثمّ أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد. ثمّ أخرّ له ساجداً. فيقال لي: يا محمّد! ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسلْ تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا ربّ! أمتي. أمتي. فيقال لي: انطلق. فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار. فأنطلق فأفعل». كتاب الإيمان، ح326-(193).

83- الشيخ المفيد، أوائل المقالات، ص47.

84- الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج3، ص135.

ولم تقصر نصوص المدوّنة منحة الشفاعة على المزُور؛ بل وسّعت مجالها لتشمل الزائر نفسه، وتكسبه القدرة على تحقيق الخلاص إذا أخلص الولاء للعلويين. وبقدر ما يترقّى الإنسان الشيعي في درجة الإيمان، والاقتراب من دائرة الفعل الإلهي، يترقّى الإمام، ويزداد قداسة ومفارقة للواقع والتاريخ. ومع مرور الزمن تحجب مكانته ما سواها من مقدّسات المجموعة، فلا تستحضرها إلّا للدعم أو التبرير. وقد أولى ابن قولويه شفاعة المسلم الشيعي لغيره من الخطأة اهتماماً، فأفرد لها باباً مستقلاً بعنوان (إنّ زوّار الحسين (ع) مُشَفّعُون). ومن الأحاديث الواردة فيه، قول جعفر الصادق: «زائر الحسين (ع) مُشفّعٌ يوم القيامة لمئة رجل، كلّهم قد وجبت لهم النار ممّن كان في الدنيا من المُسرفين»[85].

ويكتسب الإمام، بمقتضى هذا الخبر، جزءاً من المقدرة الإلهيّة، أو هي تُفَوَّضُ إليه ليفوّضها بدوره إلى من اتبعه، وزاره، على الرغم من قول الصادق: «اعلموا أنّه ليس عنكم من الله من خلقه أحد، لا ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ولا من دون ذلك. من سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله، فليطلب إلى الله أن يرضى عنه»[86]. ودعّمت بعض المرويّات فكرة تقدّس الزائر، حين فتحت له أبواب السماء ليعرج مع كلّ زيارة، وجعلته يكلّم الله فوق عرشه. ورُوي عن الإمام الرضا قوله في هذا المعنى: «من زار الحسين بن علي (ع) عارفاً بحقّه، كان من محدّثي الله فوق عرشه، ثمّ قرأ: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [القَمَر: 54-55]**»[87]. قال الفيض الكاشاني في تفسير الآية: «مقرّبين عند مَنْ تَعَالَى أمرُه في الملك والاقتدار بحيث ألهمه ذوو الأفهام»[88]. والمحَدّثون في الأديان عامّة هم خاصّة الله الذين يفوقون البشر قدرةً ومكانةً فيصطفيهم، ويكلّفهم تبليغ رسالاته. يقول الغزالي: «اعلم أنّ الرسالة أثرة علويّة، وحظوة ربانيّة، وعطيّة إلهيّة لا تكتسب بجهد، ولا تُنال بكسب»[89]. وعلى الرغم من هذه الخصوصيّة فإنّ الزائر الشيعي يبلغ هذه الدرجة بولائه للأئمة العلويين، وتعمّد زيارتهم.

وتطرّق الفيض الكاشاني إلى مسألة الشفاعة في كتاب (**الوافي**) بمنظور عرفاني. وقد وسّعت رواياته دائرة الشفاعة لتتجاوز الله والرسول والأئمّة لتشتمل على صنوف أخرى من البشر، وتضمّهم إلى دائرة المقدّس المطلقة بمجرّد زيارتهم الحسين. وجعل الفيض الكاشاني الناس على لسان الصادق صنفين: صنفاً كلّفه الله، أو هو ألحقهم بدائرة التكليف، فجعلهم مُشفّعين، وصنفاً خطّاء لا يمكنه بلوغ هذه المرتبة، ويُشفَعُ لهم. قال الصادق: «المؤمن مؤمنان؛ مؤمن وفّى لله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك مع النبيين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين، وحسُن أولئك رفيقاً، وذلك ممّن يَشفَع ولا يُشفع له [...]، ومؤمن زلّت به قدم، وذلك

85- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص309، ح2.

86- الكليني، الكافي، ج8، ص11، ح298.

87- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص ص267-268، ح19.

88- الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج4، ص55.

89- الغزالي، أبو حامد، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص131.

ممّا تصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة، ويُشفع له»[90]. ويفتح هذا التصنيف الباب أمام الاجتهاد والتأويل الفردي والجمعي في تصنيف البشر، ما دامت المقاييس الواردة في الآيات مجملة. وما دامت الروايات عن الرسول حاضرة لسدّ هذا الإشكال التشريعي. وروى المفيد عن الرسول (ص) قوله: «إنّي أشفع يوم القيامة فأُشفّع، فيشفع علي (ع) فيُشفّع، وإنّ أدنى المؤمنين شفاعة يشفع في أربعين من إخوانه»[91]. ولا تسهم الزيارة في ترقية إيمان الفرد وتخليصه من ذنوبه فحسب، وإنّما ترفع درجاته وتجعله بين الخاصّة من أهل الله.

وقد ربطت أخبار المدوّنة بين طاعة الله والرسول وورثته من الأئمّة، وبين بلوغ دائرة الخاصّة من الصالحين، والتمتع بما ينعمون به. وألحقت الشيعة بالذين أشارت إليهم الآية ممّن اتبع الله ورسوله في قوله تعالى: **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً} [النِّسَاء: 69]**. قال الفيض الكاشاني في تفسيرها: «وفيه [الكافي] و[تفسير] العياشي عنه [الصادق] عليه السلام لقد ذكركم الله في كتابه، فقال: **{فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [النِّسَاء: 69]** في الآية، فرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم في الآية من النبيين، ونحن في هذا الموضع الصدّيقون والشهداء، وأنتم الصالحون، فتسمّوا بالصلاح كما سمّاكم الله»[92].

انطلاقاً من تأكيد الفكر الشيعي اعتبار الأئمة ورثة الأنبياء، وأنّ النبي (ص) أوصى لهم بخلافته، يتوسّع معنى الآية ليلحق طاعة الأئمّة بطاعة الله ورسوله، ويصبح الإمام المكوّن الثالث لطوق نجاة المسلم وخلاصه. ويتحوّل مركز الخلاص، بعد مرحلة الإسلام، إلى وجوب بيعة الأئمة بنصرتهم في الدنيا، وتعهّدهم بالزيارة بعد موتهم. ويمكّن هذا العمل صاحبه من التعويض عن أيّ نقص في العمل الصالح، ويخلّصه من هول الآخرة. وأكّدت الأخبار المرويّة عن رسول الله (ص) إمكانيّة سدّ هذا النقص بوساطة عمل الزيارة في قوله: «يا علي من زارني في حياتي، أو بعد موتي، أو زارك في حياتك، أو بعد موتك، أو زار ابنيك في حياتيهما، أو بعد موتهما، ضمنت له يوم القيامة أن **أخلّصه** من أهوالها وشدائدها، حتى أصيّره معي في درجتي»[93].

---

90- الفيض الكاشاني، الوافي، المجلد الخامس، الجزء3، القسم2، ص752، ح2/977-2.

جاء في تفسير الصافي، أيضاً: «وعن الصادق عليه السلام: المؤمن مؤمنان؛ مؤمن في الله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وذلك ممّن يشفع ولا يشفع له؛ ذلك ممّن لا يصيبه أهوال الدنيا، ولا أهوال الآخرة، ومؤمن زلت به قدم، فذلك كخامة الزرع كيفما كفأته الريح انكفأ، وذلك ممّن يصيبه أهوال الدنيا، وأهوال الآخرة، ويشفع له، وهو على خير». ج1، ص214. لمزيد من التوسّع انظر: الحيدري، كمال، مفهوم الشفاعة في القرآن (مجموع محاضرات)، جمعها محمّد جواد الزبيدي، دار فراقد، قم، ط1، 1426هـ/2000م، ص163 وما بعدها.

91- الشيخ المفيد، أوائل المقالات، ص80.

92- الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج4، ص55.

93- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص40، ح1.

يمنح هذا الخبر الزائر مزيداً من الترقّي في درجات الجزاء ليجاور الأنبياء والرسل. واستناداً إلى أنّ الرسول (ص) هو أفضل الرسل وسيّد المرسلين في الفكر الإسلامي عامّة[94]، فإنّ الارتقاء إلى درجته من قبل الزائر بإخلاصه للأئمّة يمكّنه نظريّاً من أن يتجاوز درجات بقيّة الرسل. ويتحقّق بلوغ هذه المرتبة في سياق فهم الفكر الشيعي لمعنى النبوّة والولاية والعلاقة بينهما. يقول خنجر علي: «إذا كانت النبوّة هي التصرّف في الخلق ظاهراً وشريعة، والولاية هي التصرّف فيهم باطناً وحقيقة، والباطن والحقيقة أرفع درجة من الظاهر والشريعة، وهذا يقتضي في ظاهره، على أقلّ تقدير، أن يكون صاحب الولاية وهو الولي، أرفع من صاحب النبوّة أعني النبي»[95].

إنّ الترقّي في الإيمان، وفي درجات الجزاء، هو مسار ممكن التحقّق في العرفان الإسلامي، حين يمتلك الإنسان ناصية الشرع. ويقسّم حيدر الآملي الشرع إلى ثلاث مراتب هي: الشريعة، والحقيقة، والطريقة. وأكّد صاحب (**أسرار الشريعة**) وحدة هذه المراتب وتعبيرها عن شيء واحد هو الشرع. يقول: «الشريعة والطريقة والحقيقة ألفاظ مترادفة صادقة على حقيقة، باعتبارات مختلفة»[96]. وعلى الرغم من الترادف والوحدة بين هذه المراتب، فإنّها تتمايز لتحدّد درجات الإيمان والجزاء، فتكون الشريعة مرتبة البداية، والطريقة مرتبة الوسط، والحقيقة مرتبة النهاية، وتكون الأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص، وهي الجامع للمراتب الثلاث، وهو إيمان أهل النهاية عند الآملي[97]. وعلى الرغم من صعوبة تحصيل هذه المرتبة بالإيمان والعمل، فإنّه بإمكان الإنسان الشيعي القفز إلى هذه الدرجة بوساطة إخلاص الزيارة للإمام[98].

واستناداً إلى هذا التمثّل، ربطت مرويّات الإخباريين بين زيارة الحسين ودرجة الإيمان. وهو إيمان جعلته الأخبار لا يخضع لمدى إخلاص العمل؛ بل يزيد وينقص استناداً إلى علاقة الإنسان الشيعي، وربّما المسلم عامّة بالإمام. إنّ أداء الزيارة يرفع درجة الإيمان، والتفريط فيها ينقصه، مهما تعاظمت التضحية. وقد تتصاعد لهجة الوعيد ضدّ تارك الزيارة لتصنّفه ضمن أهل النار، وإن تفانى في القيام على أوامر الدّين.

---

94- يقول إبراهيم الموسوي الزنجاني: «يجب الإيمان بأنّ نبيّنا (ص) أفضل من الأنبياء والمرسلين، ومن الملائكة والمقرّبين، لتضافر الأخبار بذلك وتواترها». عقائد الإماميّة، منشورات الإمام المهدي، قم، 1363هـ/1944م، مج1، ص45.

95- حمية، خنجر علي، العرفان الشيعي: دراسة في الحياة الرّوحيّة والفكريّة لحيدر الآملي، ص394.

96- الآملي، حيدر بن علي بن حيدر، أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة، تحقيق محمّد خواجوي، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي، طهران، ط1، 1362ش، ص5.

97- يقسّم الآملي الإيمان إلى ثلاث مراتب: أوّلها إيمان أهل البداية المشوب بالشكّ، والشبهة، والمعارضة، ويقبل الزيادة والنقصان، ثمّ إيمان أهل الوسط، ويصدّق فيه المؤمن بما جاء به النبي من توحيد، وعدل، ونبوّة، وولاية، وهو قابل للزيادة، وغير قابل للنقصان .ثمّ إيمان أهل النهاية، ولا يقبل زيادة ولا نقصاناً». المصدر نفسه، ص ص595-596.

98- المرجع نفسه، ص32.

سُئِل الصادق عن تارك الزيارة من غير علّة، فقال: «هذا رجل من أهل النار»[99]. تتحوّل الزيارة، في هذه الحال، إلى أصل من أصول الدين، التي لا يجوز تركها، شأنها شأن الصلاة أو الإمامة.

يثير ربط الفكر الشيعي بين الشفاعة ومجرّد زيارة الإمام إشكالاً يعود، في جانب منه، إلى مفهوم «الإيمان» في الفكر الإسلامي عامّة. إنّ الإيمان هو قرن العلم بالعمل؛ أي لا معنى للإيمان الذي جاء موجزاً في سورة البقرة[100]، دون عمل بمضامينه. فالله خلق السموات والأرض ليبلو الناس **{أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الكهف: 7]**. والعمل الحسن هو مصداق الإيمان، والإيمان هو حبل نجاة المسلم في هذه الحالة. ويميّز الكُليني في (أصول الكافي) بين الإسلام والإيمان. فالإسلام، عنده، يعني الإعلان عن التصديق بوساطة اللسان، والإقرار بمعنى التوحيد نطقاً. أمّا الإيمان، فهو مرحلة تالية تمثّل الجانب التطبيقي للإسلام. رُوي عن الإمام الصادق قوله: «الإيمان هو الإقرار باللسان، وعقد في القلب، وعمل بالأركان»[101]، وعدم العمل بما أقرّه اللسان يخرج الإنسان من دائرة الإيمان والثواب، ويجعله ضمن دائرة الغضب والعقاب[102].

وتُطرح، في هذا الإطار، مجموعة من الأسئلة منها: إذا كان إسلام الفرد لا يضمن له الخلاص يوم القيامة إلّا إذا شَفَعَهُ بالإيمان، فهل الزيارة التي تضمن له الخلاص في أرقى درجاته هي الإيمان بالله، وبرسله، وبالقضاء والقدر، وبحتميّة الموت، وبالحساب، وغيرها من الشروط؟ إنّ ما فهمناه من النصوص يؤكّد هذه المعادلة، وبناء عليه نطرح سؤالاً آخر في غاية الأهميّة: هل يؤسّس الزائر إيمانه على الإسلام ديانة للجميع أم على المذهب باعتباره عقيدة الخاصّة؟[103] وإذا كانت الإمامة متمّمة النبوّة، فهل التشيّع هو الإسلام، أم هل الإسلام هو التشيّع؟ سنجيب عن جانب من هذه الأسئلة في العنصر الثاني من هذا الفصل[104]. وسنكتفي، في هذا السياق، بالإجابة عن السؤال الآتي: هل تستقيم معادلة زيارة الأئمّة عند الشيعة بمفهوم الإيمان، كما عرضنا له سابقاً، وأساسه قرن القول بالعمل؟ في تقديرنا لا يمكن أن تستقيم هذه المعادلة، في ظلّ الأخبار التي نسبتها مرويّات المدوّنة إلى الصادق حول قدرة الإمام على محو ذنوب المسرفين من أهل النار، وتفويضه هذه القدرة لغيره من البشر، إلّا إذا فتحناها على التمثّل المسيحي لمسألة «الشفاعة». ويماثل هذا المصطلح الفقهي في اللّاهوت المسيحي مفهوم الخلاص في يسوع المسيح، وبوساطته.

---

99- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص375، ح5.

100- {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البَقَرَة: 3-5].

101- الكليني، أصول الكافي: كتاب الإيمان والكفر، باب: (أنّ الإسلام قبل الإيمان)، ص183، ح 1610.

102- المرجع نفسه، ص183.

103- يستعمل مصطلح (الخاصّة) في المدوّنات الشيعيّة، للإحالة على الشيعة، مقابلاً لمصطلح (العامّة)، الذي يحيل على أهل السنة. انظر، مثلاً، مؤلفات المفيد التي أحلنا عليها في هذا البحث. ولا شكّ في أنّ هذا التصنيف يستند، أساساً، إلى مقولة الاختيار والاصطفاء في الموروث الديني الإنساني. فبنو إسرائيل هم شعب الله المختار، والمسلمون هم خير أمّة أخرجت للناس، وكلّ فرقة من فرق الإسلام هي الفرقة الناجية.

104- عنوان المبحث: الوظيفة العقديّة: من الدعوة إلى الإسلام إلى الدعوة إلى المذهب، ص207.

وإذا رمنا فهم معنى الخلاص في المسيحيّة، فلابدّ من تحديد مكانته في المنشأ، ولا أفضل من تبيّن ذلك على لسان أصحاب الشأن. يقول الأب عوض سمعان في هذا المعنى: «موضوع الخلاص من الخطيئة، والتوافق مع الله، والتمتّع إلى الأبد، هو أعظم الموضوعات أهميّة؛ لأنّه جوهر الكتاب المقدّس وخلاصته [105]. ويقول القسّ صموئيل حبيب: «إنّ الخلاص عقيدة مركزيّة في الكتاب المقدّس، فالرسالة المسيحيّة هي رسالة للخلاص، والإنجيل هو قوّة الله للخلاص»[106].

لا يختلف معنى الخلاص كثيراً بين الديانات الثلاث الكبرى في معناه اللغوي. ففي المعاجم العربيّة يدور المفهوم، كما بيّنا سابقاً، حول معنى النجاة والسلامة، وتعني كلمة الخلاص في «اللغتين العبريّة واليونانيّة: النجاة، والأمان، والحفظ، والشفاء، والصحّة، فالإنسان الخاطئ في حاجة إلى النجاة من سلطان الشيطان، والأمان من دينونة الله العادلة، والحفظ في يد المسيح القويّة، والشفاء من لعنة الخطيئة»[107]. وورد ذكر الخلاص في التوراة بمعنى نصرة الله لعباده، وتخليصهم من الهلاك، على لسان موسى، بعد أن جاوز البحر ببني إسرائيل، وقَالَ لهم: «لَا تَخَافُوا. قِفُوا وَانْظُرُوا خَلَاصَ الرَّبِّ الَّذِي يَصْنَعُهُ لَكُمُ الْيَوْمَ»[108].

وورد الخلاص في الأناجيل على لسان يسوع بمعنى اتّباع النبي، وتصديقه، ونصرته، ولو بأبسط الوسائل. وقد ارتبط المعنى، في هذا السياق، بشخص النبي لا برسالته التي يبشّر بها. وينسجم هذا المعنى مع فهم المسيحيين لطبيعة يسوع، وعلاقته بالوحي الذي بدأ مع موسى. ويُعدّ مشهد المرأة صاحبة الخطيئة، التي أتت إلى المسيح ومسحت رجليه، فقال لها: «إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ، اِذْهَبِي بِسَلَامٍ»[109]، من منظور لاهوتي مسيحي، نموذجاً لتحقّق معنى الخلاص في المسيحيّة. ودفع مثل هذا القول المنسوب إلى يسوع اللّاهوتَ المسيحيَّ كي يربط الخلاص بالمسيح، ويجعله، تدريجياً، به يتحقّق، وفيه يتجسّد، وبالخطيئة الأولى يتعلّق.

واستقرّ مفهوم الخلاص في المسيحيّة على مرجعيّتين: أولاهما خطيئة آدم في الجنّة، والثانية فداء المسيح بدمه لأتباعه. وميزة هذا الخلاص بساطة تحقّقه؛ إذ لا شروط له إلّا الإيمان بيسوع المسيح، وتصديق دعاته من بعده. وقد ورد هذا التأكيد على لسان بولس في رسالته إلى أهل رومية: «لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ خَلَصْتَ»[110]. ويتمحّض المعنى أكثر ليقتصر الخلاص على مجرّد الإيمان بالمسيح، دون الحاجة إلى عمل، في خطاب بولس إلى تِيمُوثَاوُس: «اشْتَرِكْ فِي احْتِمَالِ

105- سمعان، عوض، الخلاص بين الوحي والمفاهيم البشريّة، القاهرة، مكتبة كنيسة الإخوة، (د.ت)، ص4.

106- حبيب، صموئيل، الخلاص في مفهومه الكتابي والتطبيقي، القاهرة، دار الثقافة المسيحيّة، (د.ت)، ص3.

107- ميخائيل، (القس) لبيب، يقين الخلاص، القاهرة، لجنة مطبوعات الكنيسة المعمدانيّة، الكتابيّة الأولى، 1962م، ط1، ص8.

108- خروج: 14(13).

109- لوقا: 7(50).

110- [رومية 10: 9].

الْمَشَقَّاتِ لأَجْلِ الإِنْجِيلِ بِحَسَبِ قُوَّةِ اللهِ، الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً، لَا بِمُقْتَضَى أَعْمَالِنَا؛ بَلْ بِمُقْتَضَى الْقَصْدِ وَالنِّعْمَةِ، الَّتِي أُعْطِيَتْ لَنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ»[111]. وأصبح الخلاص مفهوماً مركزيّاً في المسيحيّة، ومقصداً حقيقيّاً لتعاليمها. يقول القسّ إلياس مقار: «إنّ الخلاص، كما هو واضح في رسالة المسيح والمسيحيّة، هو خلاص الإنسان من الخطيئة»[112]. ولا يترتّب على هذا الخلاص النجاة من الدينونة فحسب، وإنّما، أيضاً، تبرير الخطاة، ومصالحتهم مع الله، وتقديسهم، وتمتيعهم بالحياة الأبديّة الخالدة[113].

يكاد المعنى الخلاصي للزيارة في الفضاء الشيعي يتطابق مع الخلاص الذي يحقّقه الإيمان بيسوع، ويماثله في البساطة وسهولة التحصيل. فمثلما يُخلّص الإيمان بيسوع الإنسان من خطيئتة الموروثة عن آدم، ويقدّسه، ويجعله يتطهّر كلّ يوم بوساطة الروح القدس، تمكّن زيارة الإمام صاحبها من التطهّر من الآثام، وإن تراكمت، وإلّا كان الزائر ممّن وجبت في حقّه النار. رُوي عن الصادق قوله: «وأيّما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتى تسيل على خدّه مضاضة: ما أوذي فينا، صرف الله عن وجهه الأذى، وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار»[114]. وأكثر من ذلك ترفع درجة الشيعي إلى مرتبة من القداسة، وتؤهّله لتطهير آثام الغير، شأنه شأن الأنبياء أولي العزم.

إنّ حديثنا عن التقاطع بين التمثّلين اللّاهوتيين المسيحي والإسلامي الشيعي ليس من باب الاجتهاد الظنّي، أو الاصطفاف المذهبي، كما قد يُفهم، وإنّما يستند إلى تقاطعات في المفاهيم، التي وقفنا عند بعضها، وإلى الظروف التي أنتجتها. ولا غرابة في أن يحدث هذا الالتقاء، من قبل الفكر الشيعي خاصةً المتحفّز للتحرّر من النموذج السنّي الحاكم، والساعي إلى صناعة ذاكرة جديدة، والمحتمي بمن ماثل وضعه. واشتركت الجماعتان المسيحيّة والشيعيّة في الإحساس بالتهميش والإقصاء، فتقاربتا.

حاول اللاهوت البولسي أن يقدّم «مسيحيّة» تضمن قبولها لدى العامّة، ولدى معارضيها خاصةً، وإلّا كيف يمرّ اللّاهوتيون على مثل هذا الحوار بين يسوع، وأحد أتباعه، دون الانتباه إلى أهميّة الجانب العملي في الأديان؟ فقد جاء في إنجيل متّى: «وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ أَيَّ صَلَاحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟ فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلَّا وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلَكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا. قَالَ لَهُ: أَيُّ الْوَصَايَا؟ فَقَالَ يَسُوعُ: لَا تَقْتُلْ، لَا تَزْنِ، لَا تَسْرِقْ، لَا تَشْهَدْ بِالزُّورِ، أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. قَالَ لَهُ الشَّابُّ: هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي. فَمَاذَا يُعْوِزُنِي بَعْدُ؟ قَالَ

111- تيمُوثَاوُس: 1 (8، 9).

112- مقار، إلياس، «إيماني» أو قضايا المسيحيّة الكبرى، دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، (د.ت)، ص386.

113- سمعان، عوض، طريق الخلاص، دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، ط2، (د.ت)، ص25.

114- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص201.

لَهُ يَسُوعُ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً فَاذْهَبْ، وَبِعْ أَمْلاَكَكَ، وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي. فَلَمَّا سَمِعَ الشَّابُّ الْكَلِمَةَ مَضَى حَزِيناً لأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ»[115].

لا شكّ في أنّ حزن هذا الشاب إنّما ينمّ عن وعيه بإهمال جانب من العمل، والاقتصار على الإيمان برسالة المسيح وقضيّته، دون تطبيق لكامل مضامينها. وعكس ما روّج له بولس، وقف الشاب بين يدي المسيح، وهو يؤمن به، ومع ذلك اغتمّ وحزن؛ لأنّه لم يعمل بجزء ممّا آمن به. ونجد تأكيداً لمسؤوليّة «المؤمن»، ولأهميّة قرن الإيمان بالعمل في سفر حزقيال: «الِابْنُ لَا يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ، وَالأَبُ لَا يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الِابْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ، وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ»[116]. وهذه ترجمة لمضمون الآية **{كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدَّثِّر: 38]**، والآية **{وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [الزّلزَلة: 8]**، والآية **{وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعَام: 164]**[117]. ويقدّم حزقيال، في سفره، طريق الخلاص الذي يتأسّس وجوباً على العمل، فيقول: «إِذَا رَجَعَ الشِّرِّيرُ عَنْ جَمِيعِ خَطَايَاهُ الَّتِي فَعَلَهَا، وَحَفِظَ كُلَّ فَرَائِضِي، وَفَعَلَ حَقّاً وَعَدْلاً، فَحَيَاةً يَحْيَا، لَا يَمُوتُ»[118].

إنّ رجوع الشرير عن خطاياه هو السبيل إلى الخلاص. ويماثل هذا الرجوع في الأدبيّات الإسلاميّة معنى التوبة. وعرّف الفيض الكاشاني التوبة على لسان علي بن أبي طالب. قال: هي الاستغفار. والاستغفار كما قال علي: «درجة العلّيين، وهو اسم واقع على ستّة معانٍ؛ أوّلها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العودة إليه أبداً، والثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرّابع أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها تؤدّي حقّها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسّادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول أستغفر الله»[119].

على الرغم من أهميّة العمل في المنظومة الإسلاميّة، وتقدّمه على الإقرار بالإسلام نطقاً، يقدّم إخباريو المدونة عمل الزيارة على أيّ عمل آخر؛ بل جعلوا زيارة الأئمّة تختزل أغلب أركان الإيمان الضامنة للخلاص. ورُوي عن الصادق قوله في هذا المعنى: «لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين (ع) من الفضل لماتوا شوقاً، وتقطّعت عليه أنفسُهم حسرات. قلت: وما فيه؟ قال: من أتاه تشوّقاً كتب الله له ألف حجّة مُتقبَّلة،

115- متّى، 19 (16، 17، 18، 19، 20، 21، 22).
116- حزقيال، 18 (20).
117- [الأنعام: 164]. [الإسراء: 15]. [فاطر: 18]. [الزمر: 7]. [النجم: 38].
118- حزقيال: 18 (21).
119- الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء، ص44.

وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيد من شهداء بدر، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة...»[120]. وصنّف ابن قولويه باباً كاملاً بعنوان «أنّ زيارة الحسين (ع) أفضل ما يكون من الأعمال»[121].

فضّلت الأخبار المرويّة عن جعفر الصادق زيارة الحسين تفضيلاً مطلقاً على كلّ الأعمال، على الرغم من قول علي بن أبي طالب: إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله -سبحانه وتعالى- الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله، فإنّه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقام الصلاة فإنّها الملّة، وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنّه جنّة من العقاب، وحجّ البيت واعتماره، فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب[122]، وصلة الرحم، فإنّها مثراة في المال [...]»[123]. ولم يأتِ الإمام الأوّل على ذكر الزيارة من قريب ولا بعيد، وهو منشأ التشيّع عند الشيعة.

## ثانياً: الزيارة دعوة: من الدعوة إلى الإسلام إلى الدعوة إلى المذهب:

### 1- الزيارة دعوة إلى تجديد الإسلام:

يحيل المدلول اللّغوي لمصطلح «دعوة» على معنى النّداء والطلب للاجتماع على شيء، أو الاشتراك فيه[124]، وتتعلّق بالجذر (د، ع، و) مجموعة من المعاني منها «الدُّعَاءُ: الرغبة إلى الله تعالى، ودَعَاهُ: ساقه، والنبيّ (ص) داعي الله، وتداعُوا عليه: تجمّعوا»[125]. وتمثّل الدّعوة بمعنى الرغبة إلى الله هدفاً أساسيّاً في الأديان. وعادة ما ينهض بهذا الدور الأنبياء، أو من ينوبهم مثل الحواري، والإمام، والصحابي، والمبشّر، والداعية، وغيرها من الصفات التي أطلقها عليهم الفكر الدّيني. وعدّ ابن تيميّة (ت 728هـ/1328م) الدعوة جزءاً من الرسالة التي حملها الرسول (ص) إلى العباد، وخلفه فيها الصحابة والعلماء بوظائف محدّدة، وأدوار منظّمة، وهي عمل المؤمن وواجبه الذي لا ينقطع، فقال: «الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا»[126]. ويفخر المسلمون، في حالة مماثلة لدى اليهود، بأنّ الله فضّل أمّة الإسلام فجعلها أمّة دعوة إلى الدّين الحقّ: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عِمرَان: 110]**.

---

120- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص ص270-271، ح3.

121- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص287.

122- يرحضان الذنب؛ أي: يغسلانه.

123- علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، خطبته في معنى الإسلام، ص187.

124- الرازي، مختار الصحاح، ص ص180-181.

125- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (دعو)، ص ص1282-1283.

126- الحراني، تقي الدين ابن تيميّة، مجموع الفتاوى، تحقيق وترتيب عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم، طبع بأمر من الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، الرياض، 1418هـ/1997م، ج15، ص157.

ويرى محمّد الوكيل أنّ الدعوة إلى الله هي جمع الناس إلى الخير، وهدايتهم إلى الرشد، بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وجاء في سورة [آل عِمرَان: 104] **{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ}** [127]. وذهب الصوّاف إلى المعنى نفسه، فعدّ الدعوة الدينيّة رسالة السماء إلى الأرض، وهديّة الخالق للمخلوق، ودين الله القويم، وطريقه المستقيم، وقد اختارها الله وجعلها الطريق الموصل إليه سبحانه، **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ} [آل عِمرَان: 19]**، ثمّ اختارها لعباده، وفرضها عليهم، ولم يرضَ بغيرها بديلاً لها **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ} [آل عِمرَان: 85]**[128]. وعدّها محمّد الغزالي برنامجاً كاملاً يضمّ في أطواره جميع المعارف، التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم، وليستكشفوا معالم الطريق، التي تجمعهم راشدين بوساطة الرسل المبشرين والمنذرين[129].

سعى الفكر الشيعي، في هذا السياق، إلى تنزيل خروج الإمام الحسين إلى العراق في هذا الفضاء الرابط بين السماء والأرض، وربط ذاكرته الناشئة بالذاكرة الدينيّة الكتابيّة، وجعله مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله، والرغبة إليه. وتتمثّل خصوصيّة هذا الخروج في تصنيفه حركة إصلاحيّة قام بها الحسين لا ديانة جديدة آخذة في التشكّل. إنّ تأكيد هذه الخصوصيّة يسهّل ترويج هذه الدعوة بين الفئات المحرومة والمضطهدة خاصّة، باعتباره يتوافق مع رغباتها، ولا يتعارض مع ذاكرتها الدينيّة، التي تتبنّى مبدأ: الدّين عند الله الإسلام. وفي هذه الحالة، يسهل الطعن في مشروعيّة الحاكم القائم، باعتبار أنّه حرمهم حقوقهم، ولم يعدل بينهم؛ أي أنّه لم يحكم بشرع الله. وفي المقابل، تتهيّأ الظروف لطرح بديل عادل بمشروعيّة مستندة إلى رأسمال رمزي يتمثّل في الإرث النبوي.

وانطلاقاً من هذه الأرضيّة، يكون خروج الحسين، ودعوته إلى توحيد الإصلاح، إحياء لروح الإسلام وهيبته، بعد أن زاغ به الأمويون، واستبدّوا، وظلموا. وقد أوردت المرويّات على لسان الحسين ما يؤكّد هذه الفرضيّة في ردّه على سعيد بن العاص، حين حاول ثنيه عن الخروج إلى العراق، فقال: «أمّا بعد، فإنّه لن يشاقّ من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين، وقد دعوت إلى البرّ والإحسان، وخير الأمان أمان الله»[130]. وجعل الحسين شعار ثورته إصلاح ما فسد في أمّة الإسلام، وأدرج عمله في سياق الجهد النبوي العام الذي انفتح بإبراهيم، وأتمّه جدّه، فقال: «إنّي ما خرجت أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي، وأبي علي بن أبي طالب»[131].

---

127- الوكيل، محمّد، أسس الدعوة وآداب الدعاة، دار الوفاء للطباعة والنشر، 2000م، ص9.

128- الصواف، الدعوة والدعاء، دار الحوار، بيروت، ط1، 2002م، ص22.

129- الغزالي، محمّد، مع الله: دراسات في الدعوة والدّعاة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، 2005م، ص ص12-13.

130- الكوفي، ابن أعثم، مقتل الحسين وقيام المختار، ص84.

131- الخوارزمي، مقتل الحسين، ج1، ص188.

وصنّف العديد من البحوث الشيعيّة خروج الحسين ضمن واجب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[132]. يقول مرتضى مطهري (ت 1979م): «الأمر بالمعروف هو المبدأ الوحيد الذي يضمن بقاء الإسلام. وبعبارة أخرى هو (العلّة المُبقية) كما يصطلح عليها الفقهاء»[133]. وقد دأبت الأدبيّات الإسلاميّة على تصنيف الخروج من أجل طلب الحقّ، أو ما يُعتقد أنّه الحقّ، ضمن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وذكر الشيخ المفيد أنّ هشام القوطي، وصاحبه عباد بن سليمان الصيمري، وهما من أعلام المعتزلة، عدّا «عائشة وطلحة والزبير إنّما خرجوا إلى البصرة لينظروا في دم عثمان، ويأخذوا بثأره من ظالميه، وأرادوا، بذلك، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلبوا بوجه الله»[134].

وحين صنّف هذا الخروج ضمن دائرة الجهد النبوي الرسالي ومكمّلاً له، بنى الحسين بخطابه الثوري السابق مساراً «مقدّساً»، وماثل جهده بجهد الأنبياء، ووضع نفسه موضع الدّاعي إلى الله، وصاحب التكليف الشرعي. ويحقّق هذا التصنيف المعنى الثاني للدعوة، وهو «دعاه بمعنى ساقه»؛ لأنّ المسلم المعتقد بما يعلنه الخطاب الحسيني ينساق، بالضرورة، إلى مضامينه في ظلّ سياسة أمويّة استبداديّة دمويّة ذات أسس قبل-إسلاميّة. ونظراً إلى أهميّة وظيفة خروج الحسين، ودوره في تأسيس مفهوم التشيّع لاحقاً، أكّدت نصوص الزيارة ضرورة شهادة الزائر بشرعيّة ما حدث في شهر محرّم أمام قبر الحسين فيقول: «اللهمّ صلّ على الحسين بن علي الذي انتجبته بعلمك، وجعلته هادياً لمن شئت من خلقك، والدّليل على من بعثته برسالاتك»[135]. ويقول أيضاً: «أشهد أنّك حلّلت حلال الله، وحرّمت حرام الله، وأقمت الصلاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت على المنكر، ودعوت إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة»[136]. قال مطهري: «وهنا يأخذ معنى الشهادة معنى الإقرار والاعتراف، فيقول: أشهد؛ أي إنّني مثلي مثل أيّ إنسان عاقل، أعترف وأقرّ يا أبا عبد الله الحسين بأنّ نهضتك هي نهضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[137].

---

132- يمكن العودة في هذه المسألة إلى: مطهري، مرتضى، دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينيّة، تعريب عبد الهادي الركابي، دار النبلاء، لبنان، 2004م، ص26.

133- المرجع نفسه، ص81.

134- الشيخ المفيد، الجمل أو النصرة في حرب البصرة، منشورات المفيد، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م، ص.28

وقال المفيد، أيضاً، في شيوع هذه المسألة إبّان الفتن بين المسلمين: «[...] ومنهم طائفة أرغمها عثمان بمنعه لها المراد منه، وردها عن طلباتها، وأبطل رسومها، فحقدت عليه لذلك، وسعت في خلعه وسفك دمه، وظنت أنّ الأمر يصير من بعده إلى من يتمكن من قياده، ويجبها إلى ملتمسها. فلما تمّ ما سعت فيه فات القوم الذي رجت وطائفة انتقضت عادتها بعثمان، والإكرام لها، والإعظام ممن تقدمه، فصارت بذلك كارهة لأمره، وساعية في خلعه، وطائفة كان المتقدمون يقلدونهم الأعمال، واستبدل بهم منها سواهم من الناس، وحرمهم ما كانوا يصلون إليه من بيت المال، فسعت في ذلك في خلعه، وعاونوا من أجله على قتله، وطائفة استشنعت أحداثاً كانت منه، واعتقدت فيه الضلال بذلك، وقصدت في خلعه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وربما كان منهم غالطاً فيما استشنعه، وربّما كان منهم مصيباً فيه، غير أنّ الغرض كان منهم فيما صنعوه قصداً لنصرة الدين والإسلام». الجمل أو النصرة في حرب البصرة، ص107.

135- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص405.

136- المرجع نفسه، ص383.

137- مطهري، مرتضى، دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينيّة، ص ص77-78.

وأكّد الحسين أهميّة أن ينساق المسلمون إلى دعوته في أكثر من خطبة، وتراوح أسلوبه بين الترغيب والترهيب بحدود الله، التي لا يجد المسلم إرادة في مواجهتها. ونلمس نبرته الحادّة إزاء ما آلت إليه أحوال الإسلام والمسلمين في ردّه على كتاب أهل الكوفة، حين قال: «أمّا فقد علمتم أنّ رسول الله (ص) قد قال في حياته: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلّاً لحرام، أو تاركاً لعهد الله، ومخالفاً لسنّة رسول الله (ص)، فعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، ثمّ لم يغيّر عليه بقول ولا فعل، كان حقّاً على الله أن يُدخله مدخله»[138].

إنّ السكوت على تجاوزات ملوك بني أميّة[139] في حقّ الإسلام والمسلمين، حسب رسالة الحسين، يجعل الإنسان في دائرة الغضب الإلهي. ووفقاً لهذا المبدأ يكون خروجه عليهم ضمن باب الواجب على المسلم. ويرتقي الأمر إلى مرتبة الواجب الحتمي إذا كان الفرد في مثل موقع الحسين ومكانته. إنّ انتماءه إلى مظلّة (آل البيت) جعله يقول في الرسالة نفسها: «وأنا أحقّ من غيري بهذا الأمر لقرابتي من رسول الله»[140]. وهنا يضمّ الحسين الواجب العام، الذي يهمّ كلّ مسلم، إلى الواجب الخاص المترتّب على مفهوم الولاية والوصيّة، الذي طالما ناكف الفكر الشيعي من أجل إثباته للعلويين. ويمثّل وجود الإمام حسب الفيض الكاشاني «لطفاً من الله سبحانه بعبيده؛ إذ بوجوده يجتمع شملهم، ويتصل حبلهم، وينتصف الضعيف من القوي، والفقير من الغني، ويرتدع الجاهل، ويتيقّظ الغافل. قال تعالى: **{وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ} [الرّعد: 7]**[141].

راعت نصوص الزيارة معنى القرابة، وفتحته على شرعنة الوراثة تحت طائلة ذاكرة عربيّة تشكّلت تاريخيّاً وفق هذا النمط من التنظيم «العمراني». وقد أجازت هذه الذاكرة وراثة الزعامة الروحيّة قياساً إلى وراثة الزعامة السياسيّة والاجتماعيّة. وخصّصت نصوص المدوّنة «زيارة وارث» لشرعنة الوراثة، وتوسيع مجالها. ويمثّل هذا النصّ أحد أهمّ نصوص الزيارات، وفيه يقول الزائر: «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وصيّ رسول الله»[142]. جعل الفكر الشيعي جهد الدعوة الإبراهيميّة دائريّاً يتّصل أوّله بآخره، ويتساوى لاحقه بسابقه لتوثق عرا الصلة بين الذاكرة الشيعيّة الناشئة، والذاكرة التوحيديّة. وينعكس هذا الربط آليّاً على العلاقة بين النبوّة والإمامة. يقول ابن حوشب: «إنّ أمر الله متصل من أوّل أنبيائه ورسله وأئمّة دينه إلى آخرهم. ومن أطاع آخرهم فكأنّه أطاع أوّلهم، لاتصال أمر الله من الأوّل إلى من بعده إلى الآخر»[143].

138- الكوفي، ابن أعثم، مقتل الحسين وقيام المختار، ص102.

139- أخرج البيهقي عن أبي بكرة قال: «سمعت رسول الله (ص): خلافة نبوّة ثلاثون عاماً ثمّ يؤتي الله الملك من يشاء، فقال معاوية: قد رضينا بالملك». السيوطي، الخصائص الكبرى، ج2، ص421.

140- الكوفي، ابن أعثم، مقتل الحسين وقيام المختار، ص103.

141- الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، ج1، ص166.

142- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص401.

143- ابن حوشب، كتاب الكشف، ص28.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإرث الروحي للأنبياء كان ثقافة منتشرة بين الفرق الإسلاميّة ولاسّيما الصوفيّة. قال الهجويري (ت 465هـ/1073م)[144]، معلقاً على قول الجنيد في التصوّف[145]: «بناء التصوّف على ثماني خصال اقتداء بثمانية أنبياء عليهم السلام، فيقتدي في السخاء بإبراهيم، لأنّه بلغ به أن ضحّى بابنه. وفي الرضا بإسحاق؛ لأنّه رضي بأمر الله، فقال بترك روحه العزيزة، وفي الصبر بأيوب؛ لأنّه صبر في بلائه بالدّود، وفي الإشارة بزكريا؛ لأنّ الله تعالى قال: **{إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً} [مَريَم: 3]**، وفي الغربة بيحيى؛ لأنّه كان غريباً عن أهله بين أهله، وفي السياحة بعيسى؛ لأنّه كان في سياحته من التجرّد حيث لم يكن يملك إلّا وعاء ومشطاً، وحين رأى شخصاً يشرب بحفنتيه ألقى الوعاء، وعندما رآه يخلّل شعره بأصابعه رمى المشط، وفي لبس الصوف بموسى؛ لأنّ ملابسه كلّها كانت صوفاً، وفي الفقر بمحمّد عليه السلام؛ لأنّ الله تعالى بعث إليه بمفاتيح كنوز الأرض، وقال له: لا تشقّ على نفسك، وهيّئ لنفسك من هذه الكنوز متاعاً وأسباباً، فقال: [لَا أُرِيدُ يَا إِلَهِي أَشْبِعْنِي يَوْمًا وَأَجِعْنِي يَوْمَيْنِ]»[146].

تتطلّب وراثة الحسين الروحيّة لأولي العزم من الأنبياء، وربط حركته التاريخيّة بمسيرهم، تحقيق المعنى الثالث للدعوة، وهو التداعي على الدّاعي، والتجمّع حوله. ويمتدّ هذا المعنى على مرحلتين: مرحلة أولى مجالها حضور الإمام، ومرحلة ثانية تستغرق زمن موته، وزمن غيبة الإمام الثاني عشر. ويتطلّب إنجاز المرحلة الأولى حركة تشاركيّة بين طرفي الدعوة، هما الإمام وشيعته. وتحقّق التداعي عليه، والتجمّع حوله، حين شعر الشيعة بمشروعيّة موقفه من الخلافة الأمويّة، فكتبوا إليه الرسائل، وعرضوا عليه ولاءهم ونصرتهم. ذكر ابن أعثم الكوفي أنّ الشيعة اجتمعت في دار سلمان بن صُرْد، وكتبوا إلى الحسين بالبيعة، رافضين بيعة يزيد بن معاوية، ووراثة والده. وجاء في كتابهم الثاني: «[إلى] الحسين بن علي (ع) أمير المؤمنين من شيعته وشيعة أبيه، أمّا بعد [فحيهلا]، فإنّ الناس منتظرون لا رأي لهم في غيرك، فالعجل العجل يا بن بنت رسول الله (ص) [...]»[147]. وردّ عليهم الإمام قائلاً: «قد علمتم أنّ هؤلاء لزموا طاعة الشيطان، وتولّوا عن عبادة الرحمن...وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رُسُلكم ببيعتكم أنّكم لا تخذلوني، فإن

144- هو أبو الحسن، علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجويري الغزنوي. ولد الهجويري في مدينة غزنة بالهضبة الأفغانيّة، ومنها استمدّ لقبه. ولقب بالجلابي نسبة إلى «جلاب»، والهجويري نسبة إلى «هجوير». من صوفيّة القرن الخامس/ الحادي عشر، تتلمذ على أبي العباس الشقاني، وأبي الفضل محمّد بن حسن الختلي، وأبي القاسم الجرجاني (ت 450هـ/1058م). والتقى بمعاصره أبي القاسم القشيري (ت465هـ/1073م). عاصر الدولة الغزنويّة بين (387-582هـ/997-1186م)، وتوفي في عهد السلطان إبراهيم الغزنوي (451-492هـ/1059-1099م). كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة الإسكندرية- المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، مصر، 1394هـ/1974م، ص7.

145- قال الهجويري: «قال الجنيد -رحمه الله- التصوّف مبني على ثماني خصال: السخاء، والرضاء، والصبر، والإشارة، والغربة، ولبس الصوف، والسياحة، والفقر». المرجع نفسه، ص230.

146- المرجع نفسه، ص230.

147- الكوفي، ابن أعثم، مقتل الحسين وقيام المختار، ص41.

وفيتم لي ببيعتكم، فقد استوفيتم حقّكم، وحظّكم، ورشدكم، ونفسي مع أنفسكم، وأهلي وولدي مع أهاليكم وأولادكم، فلكم فيّ أسوة»[148].

يسعى الإمام الحسين إلى استعادة الصورة الأولى لدعوة جدّه في مضامين خطابه، فجاءت رسالته إلى أهل الكوفة مماثلة لأساليب عرض الدعوة على عرب الحجاز. قال الطبرسي في هذا السياق: «كان رسول الله (ص) يعرض نفسه على قبائل العرب في كلّ موسم، ويكلّم كلّ شريف قوم، لا يسألهم مع ذلك إلّا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: لا أكره أحداً منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه، فذاك، ومن كره لم أكرهه»[149].

وهذا عين ما أراد الحسين إنجازه، فلم يبد لهفة على البيعة، ولم يقف موقف طالبها، وإنّما أكّد، في كلّ مرّة، أنّ تحرّكه يستند إلى مرجعيتين: أولاهما شرعيّة قوامها الغيرة على الدّين، وتطبيق أمر الله من منطلق المسؤوليّة التي أسّسها القرآن، وأكّدتها السنة النبويّة. ويندرج تحرّك الإمام الحسين ضمن قاعدة «الأمر بالمعروف والنهي على المنكر»، وضمن سياق الواجب لا المندوب[150]. قال علي بن بابويه (الصدوق الأول) (ت 329هـ/941م) في رواية عن الإمام الرضا: «أروي عن العالم عليه السلام أنّه قال: إنّما هلك من كان قبلكم بما عملوا من المعاصي، ولم ينههم الربّانيون والأحبار عن ذلك. إنّ الله جلّ وعلا بعث ملكين إلى مدينة ليقلباها على أهلها، فلمّا انتهيا إليها وجدا رجلاً يدعو الله، ويتضرّع إليه، فقال أحدهما لصاحبه: أما ترى هذا الرجل الداعي؟ فقال له: رأيته، ولكن أمضي إلى ما أمرني به ربي، فقال الآخر: ولكنّي لا أحدث شيئاً حتى أرجع، فعاد إلى ربه فقال: يا ربّ إنّي انتهيت إلى المدينة، فوجدت عبدك فلاناً يدعو ويتضرّع إليك، فقال عزّ وجلّ: امضِ لما أمرتك، فإنّ ذلك رجل لم يتغيّر وجهه غضباً لي قط»[151]. وبناء على اعتقاد الشيعة أنّ الحسين وارث البيت النبوي، فإنّ تخلّيه عن الواجب يقرن مصيره بمصير الرجل العابد الذي لم يغضب لأمر الله مرّة. وإذا افترضنا مجازاً أنّ الإمام الحسين هو حبر الأمّة الأعظم، بعد موت أخيه الحسن، فإنّ سكوته، أيضاً، سيحلّ به ما أحلّ بأحبار بني إسرائيل وربّييهم؛ ولهذا السبب يعتقد مرتضى مطهري، مثلاً، أنّ «معنى النهضة الحسينيّة يفيد أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالغ القيمة إلى الحدّ الذي يمكن فيه للمرء أن يضحّي في سبيل الله بكلّ شيء»[152].

148- المرجع نفسه، ص103.

149- الطبرسي، أبو علي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ص35.

150- يميّز أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز الديلمي الطبرستاني (المعروف بسلار بن عبد العزيز) (ت 448هـ/1056م) بين الواجب والمندوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يمكن العودة إلى كتابه: المراسم العلويّة في الأحكام النبويّة، تحقيق محسن الحسيني الأميني، نشر المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت، قم، 1414هـ/1993م، ص263.

151- ابن بابويه، أبو الحسن علي بن الحسين (الصدوق الأوّل)، فقه الرضا، تحقيق: قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط1، 1406هـ/1985م، ص375.

152- مرتضى مطهري: دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينيّة، ص154.

وأمّا المرجعيّة الثانية، التي استند إليها، فأخلاقيّة اجتماعيّة تقوم على إجابة دعوة الداعي وإغاثته. وهذا ما طرحه أهل الكوفة في رسائلهم إلى الحسين. وقد انعكس حذر الإمام في ردوده على رسائل أهل العراق. وكان يذكّرهم، في كلّ مرّة، بأنّ ما عزم على إنجازه هو دعوتهم، ورسالتهم، وبيعتهم، وحقّهم، وغيرها من المصطلحات التي تؤكّد مسؤوليتهم في تحرّكه. ولم ينفِ دوره وواجبه فيما يجب القيام به من أجل دعوة الإسلام الآخذة في الانحراف عن مسارها الأوّل. وقد عبّر عن مساندته لما أجمعوا عليه بالتودّد إليهم، وترغيبهم في بيعته وصحبته، وجعلهم شركاءه في الأهل والأولاد والأنفس. لقد راهن الإمام، في هذه المرحلة من الصراع، على تحريك الذاكرة الإسلاميّة الأولى بنقائها وطهارتها عند عامّة المسلمين، من أجل حماية للذاكرة الجديدة، والمرحلة المتجدّدة. وتمثّل المرجعيّتان عمليّة تحيين واعية للنموذج الأرقى في الذاكرة العربيّة والإسلاميّة. وعدّ مرسيا إلياد «أنّ هذا التكرار الواعي لبوادر نموذجيّة معيّنة يكشف عن أنطولوجيا أصليّة: ما تنتجه الطبيعة وما يصنعه الإنسان، لا يجد (حقيقته) ولا (هويّته) إلّا بمقدار نصيبه من حقيقة متعالية. والفعل لا معنى له ولا (حقيقة) إلّا أن يكون إعادة لفعل بدئي»[153].

ومع توحّد أهداف طرفيْ الدعوة، وتكامل جهودهما في الذود عن بيضة الإسلام، تتحقّق مشروعيّة التحرّك التاريخي للحسين باتجاه كربلاء. وعلى هذا النحو يصبح الخروج على الحاكم الظالم دعوة من أجل إعادة الحقّ إلى نصابه، وما على الزائر إلّا دعمه والتذكير به أمام القبر ما دام لم يزامنه. يقول محمّد حسين فضل الله (ت 2010 م)[154]: «من هذا الموقع، فإنّنا نتصوّر أنّ هذه المجالس الحسينيّة التي أطلقها أئمّة أهل البيت (ع) تمثّل مجالس الدعوة إلى الإسلام بكلّه، الأمر الذي يفرض علينا أن نقوم في كلّ مساراتها بمهمّة تركيز الدعوة إلى الإسلام؛ لنؤكّد مفاهيمه العقائديّة والشرعيّة في نفوس كلّ جيل»[155]. وعادةً تنفتح الزيارة بمناجاة الله من قبل الزائر، وإعلان توحيده، وتعظيمه، ثمّ الشهادة بتفاني الإمام في الدعوة إلى الله، وتضحيته بنفسه من أجلها. ويُعدّ التأكيد على المرجعيّة الإلهيّة في زيارة الإمام تذكيراً بهدف الحسين، ومسعاه، ومرجع خروجه، ويمثل دفعاً لتهمة تأليه الأئمّة، والوقوع في الشرك. إنّ مباركة حركة الإمام وبيعته عليها، في إطار الرغبة إلى الله وإقامة حدوده التي وضعها الرسول (ص)، هي مطلب نفسي لدى الزائر يطمئنه بسلامة ما يأتيه من عمل، وما يتبنّاه من عقيدة.

153- مرسيا إلياد: أسطورة العود الأبدي، ص19.

154- ولد محمّد حسين فضل الله في مدينة النجف في العراق في 19 شعبان لعام 1354هـ/1935م. بدأ بالدراسة في الحوزة العلميّة في التاسعة من عمره، وعندما وصل إلى سن السادسة عشرة بدأ بحضور دروس الخارج. ومن أساتذته المرجع الديني أبو القاسم الخوئي، والمرجع محسن الحكيم، ومحمود الشاهرودي، والشيخ حسين الحلي. وأصبح أستاذاً للفقه والأصول في حوزة النجف. انتقل فضل الله من العراق إلى لبنان في سنة 1966م، وأسّس هناك حوزة المعهد الشرعي الإسلامي. وكانت له مواقف جريئة تجاه بعض القضايا الخلافيّة مع السنّة كلعن بعض الصحابة، وضرب فاطمة الزهراء. وتأثرت علاقته بحوزة النجف وقم بسبب هذه المواقف. وهو أقرب المراجع للشيعة العرب. يُنظر: موقعه الرسمي على شبكة الإنترنت.

155- فضل الله، محمّد حسين، حديث عاشوراء، دار الملاك، بيروت، ط2، 1418هـ/1998م، ص238.

ويحتاج الزائر إلى ضمان سلامة معتقداته في إطار التخاصم الفكري المستعر بين الفرق الإسلاميّة، وفي سياق حملات التشكيك والتكفير. ومن أجل تحصين النفس يكرّر كلمة «اللّهمّ» في أغلب مقاطع الدّعاء لتأكيد المرجعيّة الإسلاميّة للدعوة الحسينيّة، وارتباطها بالجَهد المحمّدي المؤسّس، ومواصلة البناء عليه. ومن بين الأدعية «الحمد لله الواحِد المتوحِّد بالأمورِ كُلّها، خالق الخلقِ، ولم يَعْزُب عنه شيءٌ من أمورها»[156]، و«لا إله إلّا الله في عِلمِه مُنْتهى علمه، ولا إله إلّا الله بعد علمه منتهى علمه...ولا إله إلّا الله والله أكبر»[157]. ويحرص الزائر قصداً على ربط مضامين الدعوة الحسينيّة بمضامين التوحيد الواردة في القرآن، فيقول: «أشهد أنّك حلّلت حلال الله، وحرّمت حرام الله، وأقمت الصلاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، ودعوت إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة»[158].

ويُمَاثل نصّ زيارة الحسين مضامين نصّ زيارة الرّسول في سعي إلى ربط اللّاحق بالسابق وتأسيسه عليه. ويقول الزائر أمام قبر الرسول (ص): «أشهد أنّك قد بلّغت رسالات ربّك، ونصحت لأمّتك، وجاهدت في سبيل الله، وعبدت الله حتى أتاك اليقين بالحكمة والموعظة الحسنة»[159]. وبعد أن يطمئنّ الزائر لسلامة طقوس المراقد، يتّجه إلى شرعنة موت أنصار الحسين، الذين قاتلوا من أجله وناصروه، فيقول: «أشهد أنّك ومن قُتِل معك شُهداء أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون، وأشهد أنّ قاتلك في النار، أدين الله بالبراءة ممّن قتلك، وممّن قاتلك وشايع عليك، وممّن جمع عليك، وممّن سمع صوتك ولم يُعِنْك، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً»[160].

حينما يكتسب موت أصحاب الحسين، في العاشر من محرّم، شرعيّة الشهادة التي تضمنها نصوص الزيارة، يُحيّن الزمن العلوي المقدّس، ويُسحب الوضع الفقهي للشهداء الأوائل على الشيعة عامّة، وعلى زوّار المراقد خاصّة، وفي جميع الأزمنة. وتتحقّق في هذا الطور المرحلة الثانية للتداعي على الإمام، والتجمّع حوله. ويصبح التداعي، في هذا السياق، فكريّاً وروحيّاً، بعد غياب الإمام، وتحوّله إلى تاريخ، وفكر، وثقافة. ويؤسّس البحث عن شرعنة طقوس الزيارة، في هذه المرحلة، ما يمكن أن نصطلح عليه «الدرع المثلّث لتحصين العقيدة الشيعيّة».

ويمثّل أتباع المذهب المحتاجين إلى حماية روحيّة مستمرّة تحصّنهم ضدّ أيّ استقطاب مخالف قاعدة المثلّث، ويمثّل المتعاطفون مع المذهب، والمتردّدون في اعتناق أصوله، الضلع الثاني، باعتبار أنّهم رصيد

156- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص398.
157- المرجع نفسه، ص274.
158- المرجع نفسه، ص383.
159- المرجع نفسه، ص49.
160- المرجع نفسه، ص383.

احتياطي قد يُستخدم في أيّة لحظة. وأمّا الضلع الثالث، فهو تحييد الفئة المنتقدة لمسير الحسين إلى العراق ومصيره، سواء من الأصوات القديمة أم المعاصرة؛ لإضعاف تأثيرهم داخل دائرة المذهب، أو خارجه. ويحتاج الفكر والوجدان الشيعيّان إلى مثل هذا الخطاب في ظلّ سعي إلى تكريس ثقافة تحرّم الخروج على الحاكم، وإن كان فاجراً، من قبل بعض الفقهاء السنّة. قال ابن تيميّة: «سُئل الإمام أحمد (ابن حنبل): عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قويّ فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيّهما يُغزى؟ فقال: أمّا الفاجر القويّ، ففوّته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأمّا الصالح الضّعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فَيُغْزَى مع القويّ الفاجر»[161].

تؤسّس شرعنة الزيارة المستندة إلى مكانة الإمام في المنظومة الشيعيّة مفهوماً مخصوصاً للزيارة تكون بموجبه دعوة إلى الإسلام الحقّ، أو الأصلي، بعد أن بدّلت المصلحة السياسيّة والعصبيّة القبليّة في مساره. ويرتكز هذا المعنى على تثبيت الحسين نائباً لجدّه وأبيه، ووارثاً للأنبياء من أولي العزم. ويعبّر الزائر عن هذا المعنى بقوله: «إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، فقد أجابك قلبي، وسمعي، وبصري، ورأيي، وهواي، على التسليم لخلف النبي المرسل [...] جئتك انقطاعاً إليك، وإلى جدّك، ووَلَدِكَ الخَلَفِ من بعدك»[162].

### 2- الدعوة إلى المذهب:

يكسب التأسيس الثاني للدعوة الإسلاميّة زيارة الإمام معنى ثانياً هو الدعوة إلى المذهب الشيعي. وتقوم الدعوة الجديدة، أساساً، على وجوب الاعتقاد بولاية العلويين وإمامتهم. ويعبّر الزائر عن هذا الالتزام أمام قبر الإمام الحسين، فيقول: «أشهد أنّكم قد بلّغتم، ونصحتُم، وصبرتُم، وقُتلتم، وغُصبتم، وأُسيئ إليكم فصبرتم. لُعِنت أمّة خالفتكم، وأمّة جحدت ولايتكم»[163]. وفي اللغة «جَحَدَه حقَّه: منعه مع علمه به»[164]. والمجحود، في هذا المعنى، هو أنّ الإمامة قرينة النبوّة عند الشيعة، ومتمّمتها بإذن من الله وعلم. روى محمّد بن مسلم عن جعفر الصادق قوله: «إنّ الله (تعالى) عوّض الحسين (عليه السلام) من قتله أن جعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره، ولا تعد أيام زائريه جائياً وراجعاً من عمره. قال محمّد بن مسلم: فقلت لأبي عبد الله (عليه السلام): هذا الجلال ينال بالحسين (عليه السلام) فما له في نفسه؟ قال: إنّ الله (تعالى) ألحقه بالنبي (صلى الله عليه وسلم) فكان معه في درجته ومنزلته، ثمّ تلا أبو عبد الله: **{وَالَّذِينَ**

161- ابن تيمية، تقي الدين، السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة، راجعه وحققه علي سامي النشّار وأحمد زكي عطيّة، مصر، دار الكتاب العربي، ط2، 1951م، ص14.

يمكن العودة إلى: رسلان، أبو عبد الله محمّد بن سعيد، الإعلام بمفاسد الخروج على الحكام، دار الفرقان، الجزائر، ط1، 1431هـ/2010م، ص13.

162- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص403.

163- المرجع نفسه، ص407.

164- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (جحد)، ص271.

**آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الطُّور: 21]**»[165]. والثابت أنّ ولاية العلويين ووصايتهم هما الحدّ الفاصل بين الشيعة وغيرهم من الفرق المخالفة. ويطرح ربط الإيمان بالإمامة إشكالاً حقيقيّاً في تحديد مفهوميْ الإسلام والإيمان المتجدّدين وفق تمثلات شيعيّة استفادت من تاريخيّة الأفكار، وراعت الواقع المتحوّل في بناء أطروحاتها.

ينقل نصّ الزيارة المتشيّع من الدعوة إلى الله بوساطة الخطّ النبوي إلى الدعوة إلى المذهب الشيعي عبر الخطّ العلوي الوارث للخطّ الأوّل، والمتمايز عنه بمقولات جديدة، ومرجعيّات ناشئة تتمحور حول مفهوم الإمامة. نقول هذا لأنّ مضمون المقطع السابق من نصّ الزيارة، وغيره، يحوّل وجهة الزائر من تبنّي ثورة العلويين ضدّ تسلّط الأمويين وانحرافهم، وهي مسألة تحظى بدعم شرائح واسعة من المسلمين، إلى طرح إمامتهم الإلهيّة، وهي قضيّة خلافيّة بين الفِرَق، ومشغل شيعيّ يمثّل وجهة نظر الأقليّة العدديّة من المسلمين في المعنى العام للكلمة[166].

وستعمّق مسألة الإمامة الانقسام بين الشيعة وغيرهم، حين جعلها الفقهاء أصلاً من أصول الإيمان. وقد تعدّدت المرويّات المنسوبة إلى الأئمّة، ومنها قول الصادق: «لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله ورسوله والأئمّة (ع) وإمام زمانه، ويردّ إليه، ويسلّم له»[167]. وقال الملا صدرا في شرح الحديث: «شرط في إيمان العبد أن يكون عارفاً بالله؛ أي بوجوده، ووحدانيته، وبصفاته الحسنى، وبرسوله (ص)، وأنّه خاتم الأنبياء والرّسل، وبالأئمّة بعده إلى إمام زمانه، فيردّ أمر دينه إليه، ويسلّم له، ويطيعه فيما يأمره وينهاه»[168].

ويوجد شبه إجماع بين الشيعة على أنّ أصول الإيمان أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوّة، و**الإمامة**، ويضيف عليها حيدر الآملي، مثلاً، المعاد الذي قالت به المعتزلة[169]. وتتضح معالم الدعوة إلى المذهب في مسألة الشفاعة التي يكفلها الأئمّة للشيعة دون غيرهم يوم القيامة. يقول كمال الحيدري في السياق نفسه: «فالتشيّع، إذاً، والموالاة، والاتباع لأهل البيت عليهم السلام، شرط من قبيل شرط التوحيد، الذي من دونه لا يشمل الإنسان العفو الإلهي. فمن دون موالاة أهل البيت عليهم السلام لا تشمل الإنسان شفاعتهم»[170].

---

165- الطوسي، كتاب الأمالي، ص316.

166- الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة، 1969م، ج1، ص34.

انظر، أيضاً: الشهرستاني، أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم، الملل والنحل، صحّحه وعلّق عليه أحمد فهمي محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1413هـ/1992م، ج1، ص13 (مسألة الإمامة).

167- الكليني، أصول الكافي: كتاب الحُجّة، باب معرفة الإمام والردّ إليه (ب17)، ح464.

168- الشيرازي، صدر الدين محمّد، شرح الأصول من الكافي، كتاب الحجة، تحقيق وتقديم سبحان علي كوشا، إشراف محمّد خامنيئي، مؤسسة الملا صدرا، طهران، ط1، 1387ش، مج5، ص192.

169- الزنجاني، إبراهيم الموسوي، عقائد الإماميّة، ص72.

170- الحيدري، كمال، مفهوم الشفاعة في القرآن، ص113.

ومع اكتساب الزائر الهويّة الشيعيّة، يعبّر عن الالتزام بخطّها الإيماني أمام قبر الحسين، فيقول: «اللهمّ إنّا أتيناه مؤمنين به، مسلّمين له، معتصمين بحبله، عارفين بحقّه، مقرّين بفضله [...][171]». ويخلع الزائر في هذا النصّ، في مستوى التعبيرات، صفات إلهيّة على الحسين تحيل على ما تعوّد المسلم عامّة أن يناجي به الله. فالإيمان بالحسين وبقضيّته يذكّر بالإيمان بالله، والاعتصام بحبل الحسين يحيل على قوله تعالى: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً} [آل عِمرَان: 103]**. ونؤكّد، في هذا السياق، أنّ من التقيناهم من الزوّار يرفضون رفضاً قاطعاً مسألة تأليه الحسين، أو مساواته بالله، ويرفضون هذا التأويل، ويصنّفونه مناكفة ومزايدة مذهبيّة. ويرَون أنّ معنى الإيمان بالحسين هو الاقتناع بسلامة مهمّته الإلهيّة، وأنّ المقصود بحبله هو حبل الله، الذي بدأه إبراهيم، وتداوله الأنبياء، وورثه عنهم الحسين. ويعيد الزائر تأكيد تشيّعه أمام المرقد، فيقول: «اللهمّ اجعلنا له شيعة، وأنصاراً، وأعواناً على طاعتك»[172]. ومع إمكانيّة حمل لفظة التشيّع في هذا الدعاء على معنى النصرة، فإنّنا نرجّح معنى الانتساب المذهبي لاعتقادنا أنّ من أهمّ رهانات طقوس الزيارة في الفضاء الشيعي الحفاظ على المذهب والذاكرة الجمعيّة لأتباعه واتحادهم. نستند، في هذا الرأي، إلى تكرار تأكيد البراءة من قاتِل الحسين، ومن سانده، ومن سكت عنه، في أكثر من زيارة؛ بل تكفيره من قبيل قول الزائر: «إنّي بهم مؤمن، وبمن قتلهم كافر»[173].

ويجدر تأكيد أنّ ظاهرة التكفير في الفضاء الإسلامي شهدت تحوّلات في دلالاتها، فخرجت من سياقها الأوّل المرتبط بإنكار وحدانيّة الله، وتصديق رسوله ورسالته، إلى مسألة الإمامة، ومسائل فرعيّة أخرى اصطبغت بعوامل عدّة، من أبرزها العامل السياسي، الذي حوّل مسألة التوحيد إلى شعار إيديولوجي مركّب تقاطعت فيه الذاكرة التاريخيّة بالحاضر السائد. وقد ارتبط توسّع هذه الظاهرة الفكرية الثقافيّة بشخصيّات نافذة يمكن أن نصفها بالصفّ الثالث من الدائرة الفاعلة في الإسلام.

وترتفع، في هذا السياق، بعض الأصوات الشيعيّة، لتَعدَّ التشيّع ديانة يجب الدفاع عنها، والإعلاء من شأنها، ولا نعتقد أنّها تعبّر عن رأي الأغلبيّة من منطلق معرفتنا بشيعة هذا الزمن على الأقل. يقول آغا بزرك الطهراني: «الاعتقادات للشيخ أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، (المتوفى في الري سنة 381هـ/991م) طبع مراراً، أوّله: الحمد لله رب العالمين، وحده لا شريك له، أملاه في نيسابور في مجلس يوم الجمعة ثاني عشر شعبان سنة (368هـ/978م) لمّا سأله المشايخ الحاضرون أن يملي عليهم وصف **دين** الإماميّة على وجه الإيجاز؛ ولذا سمّاه الشيخ في الفهرس بدين الإماميّة، ذكر فيه جميع اعتقادات الفرقة الناجية، الضروريّة منها، وغير الضروريّة، الوفاقيّة منها، وغير الوفاقيّة»[174] وإن تمّ

171- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص417.

172- المرجع نفسه، ص404.

173- المرجع نفسه، ص417.

174- الطهراني، آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، طبعة النجف، (د.ت)، ج2، ص226.

التصريح بعبارة «دين الإماميّة»، فلا يمكن الجزم بأنّ المقصود هو دين غير الإسلام؛ لأنّ الشيعة يعتقدون بأنّ التشيّع هو الإسلام؛ أي هو الفهم الصحيح له. ويدعم هذا القول ما نحن بصدد إثباته، وهو الدعوة إلى المذهب. ولا بدّ من تأكيد أنّ جلّ الفرق الإسلاميّة الناشئة لم تعد تشعر بانتمائها إلى الإسلام الرسمي، الذي أمسك به الأمويون، ثمّ العباسيون، بقدر اعتنائها بالمذهب. ولا شكّ لدينا في أنّ تسلّط هذه الأنظمة السياسيّة هو السبب الرئيس في تضاعف عدد الفرق والمذاهب، وفي تغيير هويّتها الروحيّة. ونربط، هنا، بين العامل السياسي، وظهور الفرق الغالية في الإسلام، أو في غيره من الديانات.

وتعبّر شهادة «الولاء للعلويين والبراءة من قَتَلَتِهِمْ»[175] طقساً آخر من طقوس العبور إلى المذهب. ويتوجّب على الزائر ممارستها قولاً وفعلاً. ويتحقّق الفعل، غالباً، في المستوى النفسي، وذلك بالحرص الدائم على استحضار أعداء الإمام في صورة المعتدي والظالم. ومع كلّ استرجاع لهذه الصورة يراكم الشيعي حواجز الفصل مع الآخر مقابل تعزيز أواصر الوصل مع الإمام العلوي. يقول الزائر مثلاً: «أشهد أنّ الذين سفكوا دمك، واستحلّوا حرمتك، ملعونون معذّبون **{عَلَى لِسانِ داوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ} [المَائدة: 78]**[176]»[177]. يتلبّس، في هذا الإطار، العام بالخاص، ويتداخل الإيماني بالنفسي، والديني بالسياسي، والتاريخي، والثقافي. ويتكرّس الانشقاق والقطيعة بين المتنازعين بطريقة تسهم في حفظ الذات الجمعيّة للشيعة، وحمايتها من الذوبان والانحلال.

وتتكرّس الحاجة إلى مثل هذا التوجّه الفكري، في ظلّ تعرّض العلويين وأتباعهم للتنكيل والمحاصرة على مرّ تاريخهم. ويجدر التذكير بأنّ تغيير العقائد لا يمكن أن يحصل دون إرادة الإنسان المستهدف، ولو استمرّت المحاولة طويلاً. وكلّ تعسّف في هذا المجال لا يخلّف إلّا نتائج عكسيّة. وكلّ تصعيد في هذا الاتجاه يدفع المجموعة المضطهدة إلى المزيد من تمتين عُرا معتقداتها وتجسيمها في التكثير من الطقوس، والمناسبات الدّينيّة، وتعظيمها، والمبالغة فيها.

انطلاقاً من هذا المعطى، نستطيع أن نفسّر قلّة الشعائر والخصوصيّات المميّزة للمذهب السنّي مقارنة بما تحفل به الذاكرة الشيعيّة. وهذا منطقيّ باعتبار أنّ أتباعه لا يحتاجون إلى تأكيد وجودهم، ولا إلى حامٍ يجمعهم، ما داموا يمثّلون أغلبيّة بشريّة من جهة، ويمسكون بدواليب صناعة الثقافة الرسميّة للدولة الإسلاميّة من جهة ثانية. واللّافت للانتباه في صياغة أغلب أدعية الزيارة تكرّر مصطلح «أشهد»، والشهادة في اللغة

175- الشيخ الطوسي، مصباح المتهجد، ص ص774-775.

176- إحالة على الآية 78 من سورة المائدة: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ}.

177- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص378.

«الخبر القاطع، وشهِد: علِم»[178]، والزائر/ الشاهد يقرّ بعلمه قطعيّة سلامة ما أتاه الحسين في شهر محرّم من سنة (61هـ/681م)، ويتبنّى ما رواه عنه الرواة، وما سنّه له الفقهاء. ويكرّر الزائر، في أغلب مقاطع أدعية الزيارة، كلمة «أشهَدُ»، والشهادتان ركن من أركان الإسلام. وتكتسب الشهادة عند الشيعة، في هذا السياق، معنى آخر هو إعلان تبنّي قضيّة الحسين تاريخيّاً، وتبنّي أصول المذهب الشيعي عقديّاً، والدخول في الجماعة، والالتزام بما تعاقدت عليه من قولٍ وفعلٍ عمليّاً.

## خاتمة الفصل:

تمثّل الوظيفة الدينيّة للزيارة عند الشيعة قاعدة أساسيّة في صناعة الذاكرة الجمعيّة وحفظها من الانحلال والتلاشي. وتشكّلت هذه الوظيفة من مفهومين مركزيين هما الخلاص، الذي يحقّقه الزائر بالاعتراف بشرعيّة الإمام، والدعوة بمرحلتين ومفهومين. ويمثّل الإقرار بإمامة العلويين الإلهيّة أولى مراحل الخلاص. ويمثّل هذا الإقرار الميثاق الذي يبرمه الزائر مع المَزور، ويفسح له مجال الانتماء إلى الجماعة.

ويتأكّد هذا العقد بزيارة الإمام في مرقده. وتمثّل هذه العمليّة ثاني مراحل الخلاص وضامنتها. ويتأهّل الزائر باجتياز هاتين المرحلتين إلى المرحلة الثالثة من طريق الخلاص، وهي مرحلة مغفرة الذنوب، والتطهّر منها بشكل نهائي في صورة مكرّرة لفوائد الحجّ عند الجماعة الإسلاميّة الكبرى. ولا يمثّل بلوغ هذه الدرجة آخر مطاف طريق الخلاص، وإنّما يؤهّل الزائر للتقدّس، فيصبح قَادِساً عظيم الشأن يغفر ذنوب غيره من الناس. وتبيّن أنّ مفهوم الخلاص الوارد في نصوص المدوّنة بصيغ متعدّدة مقولة شيعيّة لا عهد للفكر الإسلامي بها، ولا توجد في النصّ القرآني إلّا تأوّلاً. وأنّها أغنت من مفهوم الخلاص المسيحي، وتماهت معه أحياناً.

ومرّ طريق الدعوة في المدوّنة بمرحلتين؛ إذ بدأ دعوة إلى الإسلام وتصحيح مساره حسب البيان الوارد على لسان الإمام الحسين، حين شدّ الرحال إلى العراق، ثمّ استقرّ دعوة إلى المذهب الشيعي في مواجهة الحرب المذهبيّة غير المتكافئة مع الآخر السنّي. وتجسّم هذا المسار في مضامين النصوص أوّلاً، وفي تأسيس مثلّث روحي مركزه كربلاء، وضلعاه النجف والكوفة، ثانياً. ويمثّل هذا المثلّث الذاكرة المكانيّة المكمّلة للذاكرة الخطابيّة في سياق صناعة الذاكرة الشيعيّة. ويجدر تأكيد أنّ جلّ المذاهب الإسلاميّة عرفت هذا التحوّل بسبب الصراع بينها. ولم يكن الشيعة استثناء في الدعوة إلى مذهبهم، وفكرهم، وتراثهم.

178- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (شهد)، ص292. انظر، أيضاً: الأزهري، محمّد بن أحمد، معجم تهذيب اللغة، تحقيق رياض قاسم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2001م، ج3، ص2383.

## قائمة المصادر والمراجع

### المصادر والمراجع العربيّة والمعرّبة:

- ابن أبي طالب، علي، نهج البلاغة، مؤسّسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، 1329هـ/2008م.

- ابن تيميّة، تقي الدين الحراني:

- السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة، راجعه وحقّقه علي سامي النشّار وأحمد زكي عطية، دار الكتاب العربي، مصر، ط2، 1951م.

- مجموع الفتاوى، تحقيق وترتيب عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم، طبع بأمر من الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، الرياض، 1418هـ/1997م.

- ابن حوشب، جعفر بن الحسن (منصور اليمن) بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي، كتاب الكشف، تحقيق وتقديم مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1404هـ/1984م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن:

- المقدّمة، دار القلم، بيروت، ط4، 1981م.

- المقدّمة، طبعة دار الشعب، مصر، (د.ت).

- أركون، محمّد:

- أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط1، 1993م.

- إلياد، مرسيا:

- أسطورة العود الأبدي، ترجمة نهاد خياطة، دار طلاس، دمشق، ط1، 1987م.

- المقدّس والدنيوي: رمزية الطقس والأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1987م.

- الآملي، حيدر بن علي بن حيدر:

- أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة، تحقيق محمّد خواجوي، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي، طهران، ط1، 1362ش.

- الأنصاري، أبو إسماعيل عبد الله، منازل السّائرين (إلى الحقّ المبين)، شرح كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق وتعليق محسن بيدار فر، مؤسّسة التاريخ العربي، دار الحوار، بيروت، (د.ت).

- الجويلي، محمّد، الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدّس والمدنّس، سراس للنشر، المؤسّسة الوطنيّة للبحث العلمي، 1992م.

- الحارثي، أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان (المعروف بالشيخ المفيد)، كتاب المزار، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي، قم، ط1، 1409هـ/1988م.

- حبيب، صموئيل، الخلاص في مفهومه الكتابي والتطبيقي، دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، (د.ت).

- الحلّي، جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهّر:

- منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، حقّقه محمّد رشاد سالم، ضمن كتاب منهاج السنة النبويّة في نقض كلام الشيعة والقدريّة، مكتبة خياط، بيروت، 1962-1963م.

- الحمد، محمّد عبد الحميد، الديانة اليزيديّة بين الإسلام والمانويّة، وزارة الإعلام السوريّة، 2001م.

- حمية، خنجر علي، العرفان الشّيعي: دراسة في الحياة الرّوحيّة والفكريّة لحيدر الآملي، دار الهادي، بيروت، ط2، 1429هـ/2008م.

- الحيدري، إبراهيم، تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، دار الساقي، بيروت، ط1، 1999م.

- الحيدري، كمال، مفهوم الشفاعة في القرآن (مجموع محاضرات)، جمعها محمّد جواد الزبيدي، دار فراقد، قم، ط1، 1426هـ/2000م.

- الخشّاب، أحمد، الاجتماع الدّيني مفاهيمه النظريّة وتطبيقاته العمليّة، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ط2، 1964م.

- خوارزم، أبو المؤيّد الموفّق بن أحمد المكي أخطب (المشهور بالخوارزمي)، مقتل الحسين، تحقيق الشيخ محمد السماوي، تصحيح دار أنوار الهدى، انتشارات أنوار الهدى، قم، ط4، 1428هـ/2007م.

- الرازي، محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، بيروت، 1989م.

- الزنجاني، إبراهيم الموسوي، عقائد الإماميّة، منشورات الإمام المهدي، قم، 1363هـ/1944م.

- سلار بن عبد العزيز، أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز الديلمي الطبرستاني، المراسم العلويّة في الأحكام النبويّة، تحقيق محسن الحسيني الأميني، نشر المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت، قم، 1414هـ/1993م.

- سمعان، عوض:

- الخلاص بين الوحي والمفاهيم البشريّة، مكتبة كنيسة الإخوة، القاهرة، (د.ت).

- طريق الخلاص، دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، ط2، (د.ت).

- السيوطي، جلال الدّين:

- الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، تحقيق محمد خليل هراس، دار الكتب الحديثة، مصر، (د.ت).

- الشرفي، عبد المجيد:

- الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر، الدار التونسية، تونس، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1986م.

- الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تحقيق علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق، طهران، 2004م.

- الشيخ المفيد:

- أوائل المقالات، تحقيق الشيخ إبراهيم الأنصاري، نشر المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، ط1، 1413هـ/1992م.

- تصحيح اعتقادات الإماميّة، دار المفيد، بيروت، 1414هـ/1993م.

- الجمل أو النصرة في حرب البصرة، منشورات المفيد، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م.

- الصدوق الأول، أبو الحسن علي بن الحسين بن بابويه القمي:

- فقه الرضا، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ط1، 1406هـ/1985م.

- الطباطبائي، محمّد حسين:

- تفسير البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن، تحقيق أصغر إرادتي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1427هـ/2002م.

- الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1418هـ/1998م.

- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن:

- إعلام الورى بأعلام الهدى، تقديم محمّد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها في النجف، ط3، 1390هـ/1970م.

- الطهراني، آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، طبعة النجف، (د.ت).

- الطوسي، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن (المشتهر بشيخ الطائفة والشيخ الطوسي):

- الاستبصار فيما اختلف من أخبار، تحقيق محمّد جواد الفقيه، فهرسة وتصحيح يوسف البقاعي، دار أضواء، بيروت، 1413هـ/1996م.

- مصباح المتهجد وسلاح المتعبّد، مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت، ط1، 1411هـ/1991م.

- عبد الملك (بطرس)، وطومسن (جون ألكسندر)، ومطر (إبراهيم)، قاموس الكتاب المقدّس، طبعة دار الثقافة، القاهرة، 1995م.

- الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد الغزالي:

- معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1409هـ/1988م.

- الغزالي، محمّد، مع الله: دراسات في الدعوة والدّعاة، نهضة مصر، ط6، 2005م.

- الفيروزأبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة، إشراف محمّد نعيم العرقسوسي، مؤسّسة الرسالة، ط8، 1426هـ/2005م.

- الفيض الكاشاني، محمّد بن مرتضى ين محمود (المشهور بالفيض والمحسن الكاشاني):

- تفسير الصافي، شركة مكتبة الألفين، الكويت، 1427هـ/2006م.

- كسر أصنام الجاهليّة، قدّم له وحقّقه محسن جهانكيري، مؤسّسة ملا صدرا للنشر، طهران، ط1، 1381 هـ/1961م.

- المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، مؤسّسة إحياء الكتب الإسلاميّة، قم، ط1، 1426هـ.

- الوافي، منشورات مكتبة أمير المؤمنين علي عليه السلام، أصفهان، 1312هـ/1894م.

- القرآن الكريم.

- القس ميخائيل، لبيب، يقين الخلاص، لجنة مطبوعات الكنيسة المعمدانيّة، الكتابيّة الأولى، القاهرة، ط1، 1962م.

- القمني، سيّد محمود، الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلاميّة، مكتبة مدبولي الصّغير، القاهرة، ط4، 416هـ/1996م.

- القمي، أبو القاسم جعفر بن محمّد بن جعفر بن موسى بن قولويه، **كامل الزيارات**، تحقيق جواد القيومي، نشر الفقاهة، قم، ط5، 1429هـ/2008م.

- الكتاب المقدس.

- الكليني وغيره، الأصول الأربعة: (كتاب الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، وتهذيب الأحكام، والاستبصار في ما اختلف من الأخبار لمحمّد بن الحسن الطوسي)، تحقيق صادق بزركر بفرويي، مؤسّسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، ط1، 1424هـ/2003م، (في جزأين).

- الكوفي، ابن أعثم:

- مقتل الحسين وقيام المختار، منشورات أنوار الهدى، قم، ط2، 1424هـ/2003م.

- مطهري، مرتضى:

- دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينيّة، تعريب عبد الهادي الركابي، دار النبلاء، لبنان، 2004م.

- مقار، إلياس، إيماني أو قضايا المسيحيّة الكبرى، دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، (د.ت).

- الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الغزنوي، كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة الإسكندرية - المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، مصر، 1394هـ/1974م.

- الوكيل، محمد، أسس الدعوة وآداب الدعاة، دار الوفاء، 2000م.

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، طبعة ليدن، 1883م.

## المراجع باللغة الأجنبيّة:

- **Malek**, Yusuf: The British betrayal of the Assyrian, Chicago, 1935.

- **Van Gennep**, A.: Les Rites de passage, Paris La Haye, mouton, 1969.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com


الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

**info@mominoun.com**

**www.mominoun.com**



جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019